

تأليف

ل. م. فلتشر - هارفي كول

لينا چجر - كريستوفر وود



ترجمه

دكتور كامل عطا

راجعه

مصطفى حبيب

الألف كتاب (٦٠٠)



بإشراف
الإدارة العامة للثقافة
بوزارة التعليم العالى

تصدر هذه السلسلة بمعاونة
المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

الألف كتاب (٦٠٠)

التدخين

تأليف: ل. م. فلتشر - هارفى كول
ليناجيجر - كريستوفر وود

ترجمة
دكتور كامل عطا

راجعه
مصطفى حبيب

الناشر
مؤسسة سجل العرب
بإشراف الأستاذ الدكتور ابراهيم عبده
٢٦ شارع شريف باشا القاهرة
تليفون ٤٩٩٩٩ ٥٢٣٠٩

١٩٦٦

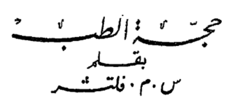
هذه ترجمة كتاب :

COMMON SENSE ABOUT SMOKING

تأليف :

C. M. FLETCHER
HARVEY COLE
LENA JEGER
CHRISTOPHER WOOD

محتويات الكتاب



حجة الطب
بقلم
س . م . فلتشر

للتدخين جاذبية تستهوى الكثيرين من الناس وهى من الوضوح والقوة بحيث لا نحتاج إلى عالم ليدلل على وجودها ، على أن الشيء الذى يدعو إلى العجب فى لذة الجاذبية وقدرتها على التغلب على النفور الطبيعى الذى تشعر به معظم الحيوانات بما فيها الإنسان عند استنشاق الدخان . وعلى الرغم من أن رائحة الدخان فى أول عهد دخول التبغ إلى إنجلترا كانت كريهة لا ترقى إلى دخان السيجارة العصرية الذى يختلط به عطر لطيف ، فقد انتشر التدخين خلال بضع سنين انتشاراً كبيراً إلى درجة جعلت الملكة إليزابيث الأولى تفرض عليه الضرائب. ولكن عادة التدخين سارت بخطى واسعة حتى عمت سائر أنحاء العالم الغربى ، وحتى أصبح ثلاثة أرباع سكان الجزر البريطانية من الرجال ونصف سكانها من النساء من المدخنين.

وتأثير التدخين على من لم يعتده مثير يلفت النظر ، إذ يسرع نبض المدخن ويجعله يحس بالغثيان بل وغالباً ما يعرضه للقيء . وفى معظم الأحوال وعلى الرغم من هذا فإن معظم من جربوا التدخين أحسوا بشيء من المتعة التى لا يمكن تعريفها على وجه التحديد ، والتى كان لها من قوة الجاذبية البالغة مما جعلهم يصرون على الاستمرار فى محاولاتهم وسرعان ما طغى اعتياد التدخين على الإحساسات الكريهة وأصبحوا عبيداً للعادة فإذا حيل بينهم وبين التدخين أصابهم شرود فكر وابتئاس ، ويقيناً إن ذلك البؤس الذى يصيب المدخن عندما يقلع عن التدخين ، ثم ما يحسه من ارتياح بالغ عندما يعود إليه ، واحتلال السجاير للسوق السوداء فى جميع ربوع أوروبا فى أعقاب الحرب العالمية ليبرر استعمال كلمة إدمان فى وصف الصلات القائمة بين معظم المدخنين والتبغ الذى يدخنونه .

ولا عجب أن ظل مثل هذا الإدمان مثاراً لنقاش لا ينتهى ، فأنصار التدخين يطرونه باعتباره ضرورة لا غنى عنها لمباشرة الاختلاط الاجتماعى ومزاولة الأعمال والترويح عن النفس . فى حين أن خصومه ينعون عليه قذارته ورائحته الكريهة ، والنفقات التى يتطلبها ، والإهمال الذى يصاحب العادة . حتى المدخنون أنفسهم يسلمون ببعض مساوئه الصغيرة ، فيقولون « إنه يسبب عسر التنفس والسعال ويخشون أثره إلى الحد الذى يأبون معه إباحة هذه اللذة لأطفالهم على افتراض أنه قد يوقف نموهم » . وهى فكرة تفتقر إلى التأييد .

وظل الأطباء قروناً يشتركون فى هذا الجدل كل حسب عاداته الخاصة، فالمدخنون منهم يغضون الطرف عن التدخين، وغير المدخنين لا يسمحون به. وكلا الفريقين لا يستند إلى أدلة حاسمة ،أما مؤيدوه فلم يكونوا فى حاجة إلى سند من العلم. فإذا قال قائل إنه يجد متعة فى عادة التدخين، وإنها تمهد وتسهل له طرق الانسجام الاجتماعى ،كان فى غير حاجة إلى دليل يسند دعواه . أما الناعون على عادة التدخين فهم الذين يعوزهم دليل يبرر هذا النعى وهذا الهجوم، ولكنهم ظلوا يفتقرون إلى هذا الدليل على نتائج التدخين الخطرة حتى عهد قريب، وقد زعموا إن ظهور السرطان على شفاه المدخنين يلازم استعمال الغليون المصنوع من الصلصال، فلما بطل استعماله وسار التدخين خصوصاً تدخين السجاير خطوات سريعة طيلة النصف الأول من القرن الحالى ،لم يثر الأطباء إعتراضاً له وزنه وقيمته .

لكن الموقف قد تغير اليوم كلية ، إذ قام الأطباء يعلنون أن التدخين عامة وتدخين السجاير خاصة سبب قوى فى نشوء كثير من الأمراض المتباينة الخطيرة، وكان السبب فى هذه الثورة فى رأى الطب عاملين أساسيين:

الأول : إن الناس فى أوائل هذا القرن، وخاصة منذ قيام الحرب العالمية

الأولى قد دأبوا على التحول عن تدخين التبغ فى الغلايين ، وتدخين السيجار إلى تدخين السجاير وهى مصدر الخطر ، ولما كان لا بد لظهور هذا الخطر من مرور عشرين إلى ثلاثين سنة ، فإنه لم يتضح على مدى واسع إلا من عهد قريب .

والثانى : إن البحث الطبى قد توصل من عهد قريب إلى إيجاد طرق فنية استطاع بها قياس أثر البيئات والعادات . وقد بدأ الأطباء فى التزيد فى استعمال طرق الإحصاء العلمى ، وفى الاعتماد على ما فيه من دليل أكثر من اعتمادهم على الخبرات والميول الفردية التى يحكم بها الأطباء فرادى على تأثير التدخين ، فالطب فى الخمسين السنة الأخيرة قد أصبح أقرب إلى العلم مع استمرار كونه فناً وحرفة .

وجدير بالملاحظة أن تغير الرأى الطبى بخصوص التدخين ظل ضئيل الأثر على عادات التدخين حتى أدلى مجلس البحث الطبى بسلسلة من التصريحات الحاسمة ، وكذلك فعلت وزارة الصحة ، كما لفتت كلية الأطباء الملكية الأنظار من عهد قريب إلى الأدلة على خطر تدخين السجاير ، ومع ذلك كانت مبيعات التبغ فى كل مناسبة من هذه المناسبات تهبط هبوطاً مؤقتاً لتعود إلى استئناف الارتفاع المستمر فى استهلاك السجاير ، ذلك الارتفاع الذى اتسمت به عشرات من السنين الأخيرة . إلا أنه جد تغيير كبير فى عادة التدخين بين الأطباء أنفسهم إذ كان هناك فارق طفيف بين عادة الأطباء وعادة الجماهير فى التدخين ، فتغير هذا الوضع فى السنوات العشر الأخيرة ، فأصبح مدخنوا السجاير من الجماهير ثلثى تعدادهم ومن الأطباء أكثر بقليل من ثلث عددهم فقط كما أصبح أكثر من نصف عدد الأطباء لا يدخنون ، أما غير المدخنين من الجماهير فبلغ الربع فقط . وقد أصبح تدخين السجاير بين الأطباء المتخصصين فى الأمراض الصدرية نادراً جداً . وقد شوهد فى إجتماع عقد من وقت قريب حضره

مائتان من هؤلاء الإخصائيين ، واستغرق من الزمن ساعتين ونصف ساعة فى قاعة للمحاضرات بها منافض للسجاير ، إن ثلاث سجاير فقط هى التى دخنت .

وقد لا يكون غريباً أن لا يكون لتصريحات الحكومة من الأثر على الجمهور أكثر مما لنواهى المعلمين على تلاميذهم . لقد كان الأطباء فيما مضى فى جانب الخطأ دائماً ، ووقف صانعو التبغ ينكرون الأدلة علناً ويستشهدون بآراء مشاهير العلماء ، ويصفون الأدلة بأنها مجرد إحصاءات وأن أى إنسان يستطيع قطعاً أن يبرهن على ما يريد بذكر أرقام ، هذه حجة المدخنين فما العمل إذن ؟ . ينبغى قبل كل شىء التأمل فى تدقيق وعناية فيما جاءت به الأدلة الجديدة بعد تجريدها من الشكليات الفنية لنرى مدى الإقناع فيها وعندئذ ينبغى التأمل فى المعنى الحقيقى بعبارة « سبب المرض » — وهذا ليس بالسهل كما يبدو لأول وهلة — فإذا ما استعرضنا الأدلة قطعنا بما نفعله لتفادى الضرر الذى ينشأ من التدخين .

ولكن ما هى هذه الأدلة أولا ؟ .

التدخين وسرطان الرئة

يجب أن نبدأ بسرطان الرئة لأن زيادة معدل الوفيات من هذا المرض فى جميع أنحاء العالم زيادة كبيرة ، هى التى لفتت الأنظار ودفعت إلى بحث مستفيض فى تأثير تدخين السجاير خلال السنوات العشر الأخيرة . فقد كان سرطان الرئة لأربعين سنة خلت مرضاً نادراً ، إذ مات بهذا المرض فى انجلترا وويلز فى سنة ١٩٢٠ : ٣٠٩ من الرجال ، ١٩١ من النساء فقط .

أما فى سنة ١٩٣٠ فقد مات ٢٢٥٨ رجلا ، ٨٦٤ امرأة ، وفى سنة ١٩٦٠ زادت الوفيات زيادة مروعة فبلغت ١٨٨٨٣ رجلا ، ٣١١٨ امرأة .

ويوضح الرسم رقم ١ ظاهرة غريبة لزيادة معدل الوفيات، وقد روعى فى هذا الرسم أن يبين معدل الوفيات من سرطان الرئة فى أعمار مختلفة من سن ثلاثين إلى سن ثمانين ممن ولدوا فى خمس سنين متعاقبة من ١٨٥٦ — ١٨٦١ ويلاحظ أن معدل الوفيات كان ضئيلا نسبياً بين الأسن فالأسن ولو إلى سن متقدمة . أى أن معدل الوفيات زاد زيادة بين قريبى العهد بالولادة من جميع الأعمار. وبدأ ظهور شبه كبير بين أحدث جيلين . ولا يمكن رد هذه الزيادة العجيبة فى معدل الوفيات واختلاف المعدلات باختلاف الأجيال إلى تغير فى الوراثة البشرية يجعل كل جيل أكثر تعرضاً لسرطان الرئة من الجيل الذى سبقه ، فالتغيرات الوراثية لا يمكن أن تقع بمثل هذه السرعة ، وإذن فلا بد أن تكون بسبب عامل جديد جعل التعرض يزيد فى كل جيل عن سابقه ، وقد قيل إنه يحتمل أن الأطباء أصبحوا أكثر ميلا إلى تشخيص سرطان الرئة فى الحالات التى كانوا يشخصونها أمراضا أخرى كمظهر آخر من مظاهر السرطان مثلا أو حتى إلى السل ، إلا أنه لا يوجد طبيب ذو خبرة أو أخصائى فى أمراض الصدر يقبل على الفور هذا التعليل، إذ من النادر جداً أن يقع لبس بين سرطان الرئة والسل . لقد كانت بعض حالات سرطان الرئة لعشرين أو ثلاثين سنة خلت تشخيصاً خطأ على إنها حالات سرطان فى الكبد أو المعدة ، ولعل تحول التشخيص على هذا النحو يعلل الواقع ، وهو إن معدل الوفيات نتيجة لهذه الأشكال من السرطان قد تناقص فى الوقت الذى زاد فيه معدل الوفيات من سرطان الرئة . غير أن هناك حقيقة راهنة يستحيل تعليلها تماماً على هذا النحو ، وهى إن معدل

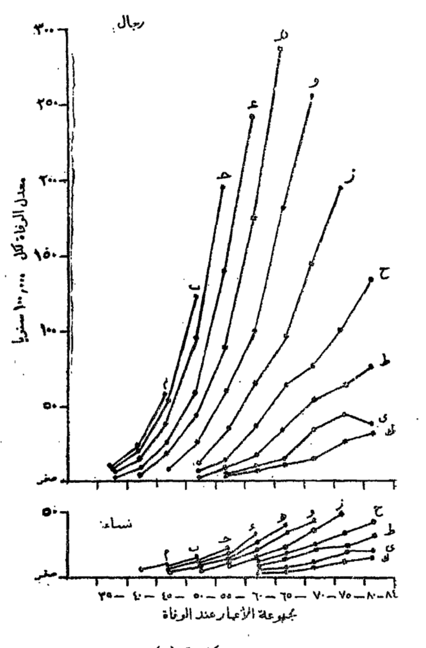
الوفيات بسرطان الرئة أعلى بين الرجال منه بين النساء . هذا مع تطبيق نفس مستويات التشخيص على الجنسين ، مما يشير إلى شيء ما من تبدل ملموس وإلى زيادة ملموسة وهائلة فى عدد المصابين بهذا المرض .

وهنا لا بد من الاستنتاج إن كل جيل عاش فى هذا القرن قد تعرض لعامل جديد يؤثر فى الرئتين ولم تتعرض له الأجيال التى سلفت، وإن تدخين السجاير هو هذا العامل على وجه التحديد . ولقد أدت أبحاث مستفيضة عديدة إلى استنتاج احتمال أن يكون تدخين السجاير هو السبب فى الإصابة بسرطان الرئة .

العودة الى دراسات سابقه

كان أول رابط ما أجرى من بحوث، أن وضع مرضى المستشفيات المصابون بالسرطان بحيث يكون إلى جانب كل منهم مريض آخر من نفس السن ونفس الجنس يشكو من علة ما ، وسجلت عاداتهم فى التدخين . وقد أجرى أكثر من ثلاثين بحثاً على هذا النحو فى عشرة أقطار مختلفة على الأقل، فظهر أن المصابين بسرطان الرئة كانوا أكثر من المرضى الآخرين إسرافاً فى تدخين السجاير ، وأقل منهم اعتدالا فى تدخينها أو امتناعا عنها . وقد انتهت جميع البحوث التى من هذا النوع إلى نفس النتيجة. إلا أن هذا الضرب من البحوث قد قوبل بكثير من أوجه النقد ، فقيل مثلا إنه يجوز بطريقة ما أن يكون الباحثون فى عادات التدخين قد بالغوا فيها عندما استقصوا حالات من وثقوا أنهم مصابون بسرطان الرئة ، أو أن يكون المصابون بسرطان الرئة أنفسهم قد أدلوا ببيانات غير دقيقة عن ماضى عاداتهم فى التدخين، أو إن عادات التدخين عند المرضى الذين كانوا موضع المقارنة لا تمثل بطريقة ما واقع العادات عند الناس جميعاً . ويمكن الرد

على جميع أوجه النقد هذه بالقول ، إنه من العسير أن يحلل كيف ينتهى أى تحيز منظم من أى نوع إلى نفس النتائج التى وصل إليها كثير جداً من البحوث المستقلة .



شكل رقم (١)

الشكل رقم ١ : يبين معدل الوفيات بسرطان الرئة حسب السن عند الرجال والنساء المولودين فى فترات مختلفة :

١ — مواليد حوالى ١٩٠٦
٢ — « « ١٩٠١
٣ — « « ١٨٩٦
٤ — « « ١٨٩١
٥ — « « ١٨٨٦
٦ — « « ١٨٨١
٧ — « « ١٨٧٦
٨ — « « ١٨٧١
٩ — « « ١٨٦٦
١٠ — « « ١٨٥٦

كما يبين إن التعرض للموت بسرطان الرئة بين كل مجموعة من مواليد كل خمس سنوات ابتداء من ١٨٥٦ كان أكثر منه بين المجموعة التى سبقتها كما يبين أن الفرق بين المجموعتين الحديثتين وهما ١ ، ٢ آخذ فى التناقص عن مثيله بين المجموعات ، القديمة ، ويبين نفس التحليل إن معدل الوفيات بين النساء أقل ، وأن نفس التغيير ظل يحدث خلال الخمسين السنة الماضية ولكن بدرجة أقل .

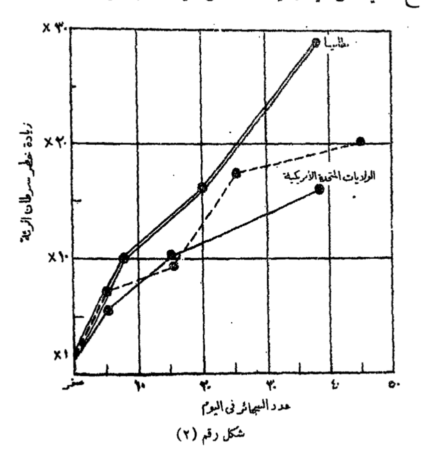
وما من نوع من أنواع السرطان قد تزايد فيه معدل الوفيات بين كل مجموعة وأخرى ، كما تزايد فى سرطان الرئة .

هذا الشكل منقول عن « سرطان الرئة » لناشره بيجنول ليفينجستون ١٩٥٨ .

دراسات قياسية

ولقد أجريت أبحاث من طرز أخرى أجدر بالركون إليها سجلت فيها عادات التدخين عند جماعات كبيرة من الناس وضعوا بعد ذلك تحت الملاحظة سنين عديدة ، ورصدت أسباب وفاتهم . وقد قام بتسجيل نتائج ثلاثة من هذه البحوث تسجيلا دقيقاً وافياً كل من السير أوستن برادفورد هيل ، والدكتور رتشارد دول من الأطباء الإنجليز ، واثنان من الأمريكان من جماعة المتطوعين للعمل فى جمعية السرطان الأمريكية ومن العاملين بين حملة بوالص التأمين على الحياة التى تصدرها الولايات المتحدة الأمريكية. وقد اتضح من جميع هذه الدراسات أن معدل الوفيات بين مدخنى السجاير أعلى بكثير عن معدل الوفيات بين مدخنى الغلايين والسيجار ، وأن معدل الوفيات بين الممتنعين عن التدخين أقلها جميعاً . وسنتناول فى موضع يلى الزيادة فى معدل الوفيات بصفة عامة . ولقد أوضحت جميع هذه الدراسات على وجه خاص أن الزيادة الجارفة فى عدد الوفيات بسبب سرطان الرئة قد اقترنت بزيادة فى عدد مدخنى السجاير ، ويوضح الشكل رقم ٢ وجود صلة مذهلة بين عدد الوفيات بسرطان الرئة وبين عدد السجاير التى دخنها المدخنون ، وهى النتيجة التى وصلت إليها البحوث الثلاثة معاً ، والتى تقول إن معدل الوفيات بسرطان الرئة بين المسرفين فى التدخين عشرون مرة أكثر منه بين غير المدخنين ، وإن معدل الوفيات بسرطان الرئة بين الإنجليز أعلى المعدلات فى العالم كله ، وإن معدل التعرض للموت فى جميع مستويات التدخين أعلى فى بحوث الانجليز منه فى بحوث الأمريكيين . ولعل التعاليل

المحتملة لهذه الظاهرة اثنان : الأول إن البريطانيين معرضون بصفة عامة لتلوث الهواء على مستويات أعلى، والثانى إن البريطانيين يميلون إلى تدخين السيجارة إلى قرب نهايتها أكثر مما يفعل الآخرون . ولهذا فهم معرضون مع تدخين كل سيجارة إلى امتصاص كميات أكبر من الدخان .



شكل رقم (٢)

الشكل رقم ٢ : يوضح الصلة بين عدد السجاير التى تدخن فى اليوم وبين معدل الوفيات بسرطان الرئة فى ثلاثة دراسات متطلعة ، كما يوضح مدى خطر التعرض للإصابة بسرطان الرئة ، إذ يتضاعف هذا الخطر عند من يدخنون أعداداً متباينة من السجاير فى أول الفحص بالقياس إلى خطر التعرض عند غير المدخنين ، فالخطر الأفقى الأول فى الشكل يشير إلى أن خطر التعرض عند المدخنين عشرة أضعافه عند غير المدخنين والخطر الثانى

يشير إلى أن الخطر عشرون ضعفاً ، والخطر الثالث يشير إلى أنه ثلاثون ضعفاً .. وقد أخذت هذه الأرقام عن دراسات دول ، وهيل من الأطباء البريطانيين، وعن دراسات هاموند وهورن ودراسات دورن الأمريكيين .

وقد كشفت هذه الدراسات أيضاً عن حقائق هامة :

أولا — إن معدل الوفيات بين مدخنى السجاير أعلى منه بين مدخنى الغليونات ، وإنه أعلى بين مدخنى الغليونات عنه عند غير المدخنين . وقد دلت الدراسات الأمريكية حيث يكثر عدد الذين يدخنون السيجار فقط على أن الإصابة بسرطان الرئة بين مدخنى السيجار ثلث الاصابة به بين عدد مدخنى السجاير .

ثانياً — إن معدل الوفيات بسرطان الرئة بين من أقلعوا عن التدخين قبل الشروع بالدراسة بفترة من الزمن كان أقل منه عند من استمروا فى التدخين بنفس الكميات ، فالمعدل كان بنسبة الربع بين من أقلعوا عن التدخين منذ عشر سنوات ، وكان بنسبة النصف بين من أقلعوا مدة أقل من عشر سنوات، وذلك بالنسبة إلى معدل الوفيات بسرطان الرئة بين من استمروا فى التدخين . ومن ثم فالاقلاع عن التدخين يقلل من التعرض لخطر الإصابة بهذا المرض. وقد قوبلت هذه الدراسات بالاعتراض كما قوبل غيرها من قبل، إذ قيل بجواز تسلل الهوى عند اختيار الأشخاص ، فأولئك الذين استجابوا عن طيب خاطر للاستفسار منهم عن عاداتهم فى التدخين قد يختلفون بأسلوب ما عن أولئك الذين لم يستجيبوا . مثل ذلك إن الأصحاء من المقلعين عن التدخين — وهم يعتزون بهذا الإقلاع — كانوا أكثر ميلا للاستجابة عن غيرهم من المرضى ، فى حين إن الأصحاء من المدخنين لم يستجيبوا لأنهم لم يهتموا بالأمر ولهذا كان يمكن استبعاد

المرضى من غير المدخنين والأصحاء من المدخنين ، فالحالة الصحية عند هؤلاء الأشخاص عند استقصاء حالاتهم إنما تؤثر فى معدل الوفاة فى السنة الأولى أو فى السنتين الأوليين من سنى البحث . غير أن العلاقة بين سرطان الرئة وبين التدخين أصبحت مع مرور الزمن أوثق ارتباطاً . كما قيل أيضاً بجواز وقوع الخطأ . فمع تزايد الاهتمام بربط تدخين السجاير بظهور سرطان الرئة عند مدخنى السجاير يميل الأطباء إلى تشخيصه فى المدخنين وعدم تشخيصه فى غير المدخنين ، وكان من الجائز أن يؤدى هذا الميل إلى زيادة معدل الوفاة بسبب علل أخرى بين غير المدخنين وإلى إقلاله بين المدخنين. غير أنه استبان إن معدل الوفاة بسبب جميع العلل أكبر بين المدخنين منه بين غير المدخنين . يضاف إلى هذا إنه عند قصر النظر على الارتباط بين التدخين وحالات سرطان الرئة — التى تأيد وجودها بصفة قاطعة بعمل الصفة التشريحية — تبين أن هذا الارتباط كان أوثق فى حالات التدخين منه فى الحالات الأخرى بوجه الإجمال . وإذن فاحتمال خطأ التشخيص كان أكثر اتجاهاً إلى تقليل ارتباط السرطان بالتدخين فى الدراسة كلها .

إن أحداً لا ينكر اليوم أن هذه الدراسات قد برهنت على أن هناك ارتباطاً وثيقاً بين تدخين السجاير وبين سرطان الرئة ، وهو ما يجب التسليم به . غير أنه ينبغى فى الوقت نفسه التأمل فيما إذا كان هذا الارتباط قائماً لأن تدخين السجاير يسبب سرطان الرئة أو لأن هناك تفسيراً آخر .

إن النظرية القائلة إن تدخين السجاير يسبب سرطان الرئة تعنى ضمناً وجود مواد فى الدخان تسبب السرطان . والواقع إن التحاليل التى أجريت على دخان السجاير قد أظهرت على أنه يحتوى مركبات عديدة عرف أنها

تسبب السرطان إذا وضعت على جلد حيوانات التجارب ، غير أن هذه المواد توجد فى دخان السجاير بكميات قليلة جداً لدرجة إنه لا يحتمل أن يكون لهـا تأثير يذكر وهى بالتركيز الموجود فى الدخان، إلا إذا كان هناك مؤثر آخر . وقد استبان من تجارب المعمل أن قدرة هذه المواد فى تسبيب السرطان يمكن زيادتها زيادة هائلة بواسطة مواد مهيجة أخرى تسمى المسببات المساعدة السرطانية Co-Carcinogens ،وأن فى دخان السجاير عدداً من هذه المواد تفعل على هذا النحو ، ولذا فتأثير هذه المواد مجتمعة فى الدخان يؤدى إلى ظهور السرطان .

صحيح إن أحداً لم يصل إلى الآن فى إحداث سرطان الرئة فى حيوانات المعمل بتعريضها لاستنشاق دخان السجاير . ولكن يبدو أن إحتمال ظهور سرطان الرئة فى الإنسان يستلزم تعرضه لدخان السجاير مدة لا تقل عن عشرين سنة . وحيوانات المعمل لا تعيش كل هذه السنين ، ومن ثم فأدلة المعمل من هذا القبيل إيهام ومغالطة .

إن التهيج المزمن الذى يصحب استنشاق دخان التبغ يحدث تغيراً فى شعب المدخنين ، وبالتالى فمن المنتظر أن يكون هذا التغير أشد وأقسى عند مدمنى التدخين. وقد استبان هذا فى عدد من البحوث التى أجريت على شعب أشخاص ماتوا بعلل مختلفة ، إذ ظهرت الصلة بين عاداتهم فى التدخين إبان حياتهم وبين ماشوهد على تلك الشعب . ففى شعب المسرفين فى التدخين ظهرت التغيرات المزمنة التى تصاحب الالتهاب والتدهور بأكثر وأشد مما وجد على شعب المعتدلين أو غير المدخنين . وقد ذهب بعض علماء الأمراض إلى اعتبار هذه التغيرات نذيراً وتمهيداً لظهور السرطان ولو أن هذا الاتجاه لم يكن موضع الإجماع .

فإذا كان دخان السجاير سبباً فى السرطان فأولئك الذين يبتلعونه أكثر تعرضاً للسرطان ممن لا يبتلعونه . وقد كانت هذه المسألة موضع أربع دراسات استرجاعية تبين فى ثلاثة منها إن سرطان الرئة كان أكثر ظهوراً بين الذين يبتلعون دخان السجاير من بين المرضى الذين كانوا تحت الملاحظة . ولكن نتيجة البحوث البريطانية التى قام بها دول وهيل تختلف عما ذكر، وخاصة مع من كانوا أكثر إسرافاً فى التدخين . فقد كان بين المرضى الذين تحت الملاحظة ، من كانوا أكثر شهيقاً للدخان من المصابين بالسرطان . ومن الصعب التأكد من مدلول الاختلاف فى هذه الدراسة اللهم إلا أن يكون مرده إلى الواقع ، وهو إن المدخنين لا يدركون دائماً فيما إذا كانوا يبتلعون الدخان أو لا يبتلعونه . وإلى واقع آخر وهو إن كافة المسرفين فى التدخين يبتلعون الدخان إلى حد ما .

إن عناصر هذه البيئة وهى مستقلة عن بعضها البعض تسند نظرية السببية بسند إضافى ، إلا أنه قبل التسليم بها ينبغى دراسة أى تفسير آخر يمكن أن ينسجم مع الارتباط القائم بين التدخين وسرطان الرئة من ناحية وبين زيادة الوفيات فى السنين الأخيرة من ناحية أخرى .

وقد وضعت نظريات أخرى :

١ — لقد افترض أن تغييراً ما قد أصاب شعب الرئة فى مستهل الحياة ، وأن هذا التغير ربما تطور إلى إصابة سرطان الرئة فى بحر ثلاثين أو أربعين سنة ، وتكون هذه الاصابة هى المثيرة للرغبة فى التدخين ، لكن علم الطب لا يعرف تغيراً كهذا . وتستلزم هذه النظرية أن يكون هذا التغير قد ظهر لعلة غير معروفة وأصبح شائعاً فى السنين الأخيرة ، وأنه

قد أثار الرغبة فى تدخين السجاير دون الغليون . وهذا مما لا يمكن التسليم به بصفة جدية .

٢ — كما افترض من الجائز أن مدخنى السجاير الذين يموتون بسرطان الرئة كان يمكن أن يموتوا بنوع آخر من السرطان ، وإن التدخين إنما قام بتحويل الاستعداد للسرطان من الأعضاء الأخرى إلى الرئتين . فلو إن هذا كان صحيحاً إذن لكانت الوفيات بين مدخنى السجاير أقل مما هى بين المصابين بأنواع أخرى من السرطان . وهذا لم يشاهد فى دراسة واحدة من الدراسات القياسية ، بل الواقع أن الوفيات بسرطانات خارج الرئة أكثر قليلا بين المدخنين منها غير المدخنين .

٣ — ومن ناحية أخرى افترض أن مدخنى السجاير الذين يموتون من سرطان الرئة ولدوا « بضعف فى الرئة » ولهذا فمن الجائز أنهم ماتوا بالسل يوم كان السل فى الأيام الغابرة أكثر انتشاراً . غير أن معدل الوفيات بالسل قد قل فى السنين الأخيرة . ومن ثم فهذه النظرية تسلم بأن « ضعاف الرئة » إنما ينجون من السل ويعيشون ليموتوا بسرطان الرئة » وواضح أن هذه النظرية لا تفسر الارتباط القائم بين تدخين السجاير وبين سرطان الرئة . كما أنه لا يوجد دليل على وجود صلة بين الاستعداد للسل وبين سرطان الرئة ، يضاف إلى هذا أنه بالرغم من أن الموت بالسل كان أسرع هبوطاً بين النساء منه بين الرجال ، فإن سرطان الرئة قد زاد بين الرجال بدرجة أسرع مما زاد بها بين النساء .

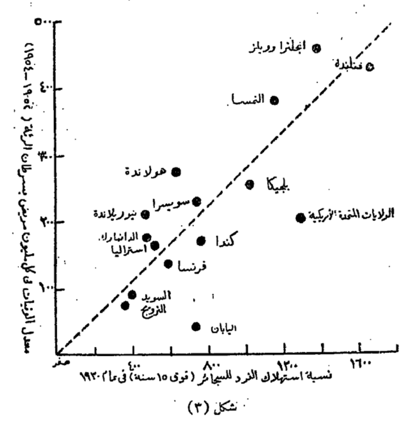
٤ — إن هذه النظرية التى كان المرحوم سير رونالد فيشر الأخصائى المشهور ضمن مؤيديها — أكثر جدية من أمثالها . وهى تتلخص فى أن الرغبة فى التدخين وراثية ، وإن من يرث تلك الرغبة يرث أيضاً الاستعداد لسرطان الرئة . ومن المعروف أن عادات التدخين تقررها الوراثة

إلى حد ما . فقد وجدت إن عادات التدخين عند توأمين متماثلين تماماً فى تركيبهما الموروث كانت أكثر تماثلا من عادات توأمين غير متماثلين ، أو عادات شقيقين عاديين. وعلى الرغم من أن الاستعداد لمعظم أشكال السرطان غير وراثية فإن بعض أشكال السرطان تظهر بين أفراد الأسرة الواحدة ، ومن الجائز أن يكون الاستعداد لسرطان الرئة وراثيا . إن هذه النظرية قد تكون تعليلا للواقع . وهو إن الأشخاص الذين يقلعون عن التدخين تكون الوفيات بالسرطان فيهم أقل من أولئك الذين يستمرون فى التدخين . فمن الجائز أن أولئك الذين استطاعوا أن يقلعوا عن التدخين كانوا على وجه الافتراض وسطاً فى الوراثة بين المدخنين وغير المدخنين. وكان ينبغى أن يضاف إلى هذه النظرية لتعليل الزيادة المروعة فى الإصابة بسرطان الرئة فى الخمسين السنة الأخيرة — الافتراض بأن هناك عاملا سرطانياً خفياً لم يعرف بعد ، قد سبب فى وقت واحد زيادة الوفيات بسرطان الرئة فى عشرين قطر أو تزيد منتشرة فى أنحاء العالم . غير أن مؤيدى هذه النظرية لم يستطيعوا أن يقولوا شيئاً عما عساه أن يكون ذلك العامل الذى أثر فى العالم بأسره . وقد ذهب فيشر إلى جواز وجوده فى الهواء الملوث . ولكن فى الوقت الذى قل فيه التلوث فى معظم أقطار العالم، زادت الوفيات بسرطان الرئة فى المدن وفى الريف وفى الأقطار التى زاد فيها التلوث أو نقص سواسية من غير تفريق . وإذن فهذه النظرية فى صميمها غير مقبولة وقد انهارت إزاء بحث ماهر طريف . ففى كاليفورنيا جماهير مسيحية كبيرة ممن يدينون بمذهب الحلول فى اليوم السابع « أدفنتست » وجميعهم لا يدخنون ، فقورن ظهور سرطان الرئة بينهم وبين غيرهم من سكان كاليفورنيا فوجد أن النسبة كانت واحداً من الأدفنتيست مقابل ثمانية من سكان كاليفورنيا الآخرين. والواقع إن من مات بسرطان الرئة

من الأدفنتيست كانا رجلين ظلا يدخنان حتى منتصف عمرهما، ثم انضما إلى طائفة الأدفنتيست . وحتى يستقيم تعليل الوراثة مع قيام الارتباط بين التدخين وسرطان الرئة ، يتعين الافتراض أنه يوجد في وقت واحد وراثة رغبة لتدخين السجاير، ووراثة الاستعداد لسرطان الرئة. والاستعداد عند من يولد في طائفة الأدفنتيست، ثم يهتدى إلى هذه الطائفة وينضم إليها، وهذا عبث سخيف .

إن السبيل الوحيد لتعليل الارتباط بين سرطان الرئة وبين التدخين، وبين تفاقم الوفيات من هذا المرض تعليلا سديداً، هو افتراض أن تدخين السجاير هو علة الإصابة بسرطان الرئة . غير أنه ينبغى قبل التسليم بهذه النتيجة أن تبحث بعناية فيما إذا كان هناك حقائق هامة تناقضها .

ذكرنا فيما سبق أن بحثاً واحداً فقط أخفق دون أن يجد مزيداً عن



شكل (٣)

إصابة أولئك الذين قالوا إنهم سيبلعون الدخان بسرطان الرئة عند مقارنتهم بمن أنكروا أنهم سيبلعونه ، ولكن بما أن ثلاثة بحوث قد وجدت فى الشهيق تلك الصلة المتوقعة ، فهذا الاعتراض شوب بالبطلان .

استهلاك الفرد البالغ (أكثر من ١٥ سنة) من السجاير فى سنة ١٩٣٠ يبين الارتباط القائم بين الوفيات بسرطان الرئة فى الفترة (١٩٥٢ — ١٩٥٤) وبين استهلاك السجاير قبل ذلك بعشرين سنة فى خمسة عشر قطراً مختلفاً ، ويوضح الشكل ٣ إنه على الرغم من قيام ارتباط وثيق بين استهلاك السجاير سنة ١٩٣٠ وبين معدل الوفيات بسرطان الرئة بعد عشرين سنة من هذا التاريخ فى أقطار كانت مجموعتا الأرقام متماثلين فى كل منها — كما تتطلبه نظرية السببية — فإن معدل الوفيات فى اليابان وفى الولايات المتحدة بالنسبة لاستهلاك السجاير كان أقل فيهما عنه فى الأقطار الأخرى. وتعليل انخفاض معدل الوفيات نسبياً فى الولايات المتحدة يتضح من الواقع الذى ذكرناه فيما سبق ، وهو أن الأمريكيين لا يميلون إلى تدخين السيجارة إلى آخر جزء منها . أما انخفاض معدل الوفيات فى اليابان فسيظل من غير تعليل . غير أن عادات التدخين عند اليابانيين لم تدرس للآن دراسة مستفيضة .

وقد ذكرنا فيما سبق حقيقة راهنة وهى إن زيادة معدل الوفيات بسرطان الرئة لم يكن جارفاً بين النساء كما كان بين الرجال خلال الأربعين السنة الماضية ، على الرغم من أنه واضح أن النساء فى السنين الأخيرة قد خطون فى تدخين السجاير خطوات أوسع بكثير من الرجال . وإنه لمن سوء الحظ ألا يكون لدينا أرقام دقيقة تماماً عن كمية السجاير التى دخنها الرجال والنساء من سنين كثيرة خلت ، ولكن الأرقام التى لدينا تشير أن الرجال بدأوا التدخين حوالى سنة ١٨٩٠ ثم تزايد تدخينهم لها منذئذ

باضطراد مع طفرات عالية خلال سنى الحرب ، وإن النساء لم يعرفن عادة التدخين تماماً قبل سنة ١٩٢٠ ، وإن قليلا منهن قد مارسن التدخين إلى ما قبل الحرب الماضية بقليل . كما أن النساء اليوم وخاصة المسنات وهن معرضات للسرطان تعرضاً بالغاً أقل إسرافاً فى التدخين من الرجال ، وليس من المتوقع أن يزيد معدل الوفيات بسرطان الرئة بين النساء كما هو الحال بين الرجال فى الوقت الراهن . والواقع أن نسبة معدل الوفاة بالسرطان بين المدخنين من الشبان إلى معدلها بين المدخنات من الشابات قد بدأت فى الهبوط كما هو المتوقع ، وذلك بسبب انحراف الشابات الأحدث سناً نحو تدخين السجاير .

وأخيراً فالواقع المستغرب هو أن ظهور السرطان فى القصبة الهوائية نادر ، كما أنه إن ظهر فى الشعب الكبيرة فإنه يظهر بدرجة أقل مما يظهر بها فى الأجزاء المحيطة بالرئة . فى حين أن المتوقع هو تعرض القصبة الهوائية والشعب الكبيرة لتركز الدخان فيها بدرجة أكبر من تعرض الأجزاء المحيطة . وليس لهذا الشذوذ من تفسير إلا القول بأنه معروف أن أنسجة مماثلة فى أجزاء الجسم المختلفة بتباين تأثرها عند تعرضها لنفس المسببات المرضية .

النتيجة :

ويجدر بنا أن نختم بالقول ، إن قيام صلة وثيقة بين التدخين وسرطان الرئة يمكن تعليله تعليلا مقبولا تماماً وبلاتردد ، وذلك بافتراض أن الصلة ناشئة عن العلة والمعلول ، لكى نقول إن تدخين السجاير سبب لسرطان الرئة . وإنه لمن المهم أن نفطن تماماً إلى معنى العبارة « سبب المرض »

فنحن لا نعرف على وجه الدقة السبب فى ظهور أى شكل من أشكال السرطان كما لا نعرف كيف ولماذا تحيد الخلايا عن الطريق الطبيعى والنمو المألوف، فتتكاثر تكاثراً عربيداً شاذاً وتنتشر فى أرجاء الجسم، فتغلب الأنسجة الأخرى على أمرها وتتناولها بالإتلاف والتـــدمير . وكل ما نستطيع استنتاجه من الأدلة التى توفرت لدينا هو إن تدخين السجاير — لسبب غير معروف — يزيد استعداد خلايا شعب الرئتين للاستهداف للتغير المؤذى الخبيث . ولا يعنى هذا الاستنتاج أن جميع المدخنين على الإطلاق يصابون بسرطان الرئة ، فالواقع إن الأقلية فقط هى التى تصاب . وقد أوضح بحث دول ، وهيل من الأطباء البريطانيين أن الخطر الذى يتعرض له الشخص الذى يدخن ٢٥ سيجارة أو أكثر فى اليوم للإصابة بسرطان الرئة هو بنسبة ١ : ١٤ قبل سن الخامسة والسبعين وبنسبة ١ : ٩ قبل سن الخامسة والثمانين. كما أن الخطر يقل نسبياً بين من يدخنون عدداً أقل من السجاير . كما أن استنتاجنا لا يعنى أن تدخين السجاير هو السبب الوحيد فى الإصابة بسرطان الرئة فقد قامت أدلة غاية فى الوضوح تشير إلى أن خطر التدخين يتفاقم فى مدن ومراكز الأقطار الصناعية حيث الهواء الملوث . ففى دخان الفحم عناصر تسبب السرطان . ويلوح أن دخان المدن يمتزج بدخان السجاير فيزداد التعرض بسرطان الرئة . على الرغم من أن معدل الوفاة بسرطان الرئة بين غير المدخنين الذين يعيشون فى مدن انجلترا المشبعة بالدخان ضئيل يصل فى السنة إلى ١ : ٢٠٠٠ بين الرجال الذين تتراوح أعمارهم بين الخامسة والثلاثين والرابعة والسبعين، وهو رقم يعادل مرتين ونصف معدل الإصابة فى الريف. فإن معدل الوفيات بين المسرفين فى التدخين ثلاثون إلى أربعين مرة معدل الوفاة بين غير المدخنين .

ثم ماذا بعد هذا للتدليل على الارتباط بين تدخين السجاير وهذا المرض الوبيل ؟!

ليس هناك سبيل للوصول إلى بينة قاطعة لا تقبل النقض على أن تدخين السجاير علة الاصابة بسرطان الرئة . إلا أن نقوم بتجربة مستحيلة تماماً وهى أن نجبر ١٠٫٠٠٠ ولدا صغيرا على التدخين باستمرار حتى تحين وفاتهم ، وأن نجبر ١٠٫٠٠٠ ولدا صغيرا آخرين على أن لا يدخنوا طيلة حياتهم ، ثم نقارن أسباب الوفاة فى الفريقين . كما انه لا سبيل إلى القيام بتجربة على الحيوانات لتكون دليلا أكثر إقناعاً من التجربة التى قام بها جيلنا الحاضر على نفسه ، على رغم ما اعتورها من نقص وذلك باستمساكه بتدخين السجاير على مدى واسع . ثم لا يغيب إن أى تجربة على الحيوان لم تستطع حقاً أن تقدم بينة لا تنقض عن أى مسبب للمرض عند الإنسان . ومع هذا فمزيد من التجارب على الحيوانات قد يكشف الغطاء عن تلك المادة الخاصة التى توجد فى دخان السجاير والتى تسبب السرطان ، وقد يؤدى هذا إلى إخراج أشكال من التبغ أسلم عاقبة . بيد أنه لن يتأتى الكشف عن مدى هذه السلامة إلا بعد أن يدخن جيل من الناس مثل هذه السجاير ولا يتعدونها إلى غيرها ، بينما يستمر غيرهم من الناس فى تدخين السجاير بشكلها الراهن ثم يظهر بعد ذلك أن معدل الوفيات بالسرطان متماثل فى الفريقين .

ونحن نعرف عن يقين إن تدخين السيجار أو الغليون يعرض للإصابة بسرطان الرئة تعريضاً ضئيلا جداً . ولكننا لا نعرف العلة فى هذه الظاهرة ، فدخان التبغ يحتوى العنصر المسبب لسرطان الرئة سواء أكان مصدره سيجاراً أو غليوناً أو سيجارة . والتعليل المحتمل هو أن مدخنى الغليون أو السيجار نادراً ما يشهقون دخانها ويحتمل أنهم يفعلون هذا لأن دخان السيجار ومعظم الغلايين قلوى مما يجعلها ملهبة أكثر من دخان السجاير الحمضى الخفيف .

وكون تدخين السجاير يسبب سرطان الرئة يستتبع أنه إذا أقلع

المدخنون عن تدخين السجاير ، فإن معدل الوفيات يهبط تبعاً لذلك إلى جزء صغير قد يصل بين الرجال إلى $\frac{1}{10}$ من مستواه الحالى . ولما كان عدد الوفيات من سرطان الرئة بين الرجال يصل إلى حوالى ٢٥٠٠٠ سنوياً نصفه يقع قبل سن التقاعد ، أصبح هذا الموضوع ذا أهمية قصوى من ناحية الفرد ومن ناحية المجموع .

التدخين وأمراض رئوية أخرى

التهاب الشعب المزمن :

الرأى الشائع بين الناس جميعاً أن معظم المدخنين يسعلون وقد تأيد هذا بدراسات كثيرة على الشعوب أوضحت أن مدخنى السيجار أقل سعالا ، وأن سعال مدخنى السجاير المصحوب ببلغم أمر عادى لدرجة أنه لا يعتبر شذوذاً عن المألوف . غير أن من كانت شعبه سليمة تماماً فإنه لا يسعل ، فسعال المدخن ناشيء عن تهييج مزمن ، والبلغم ناشيء عن نشاط مستمر غير طبيعى فى غدد الشعب التى تفرز بصفة طبيعية طبقة رقيقة من المخاط على سطح الشعب لتتلقف التراب والجراثيم عن الشهيق ، ويطرد هذا المخاط فى اتجاه علوى نحو الزور بواسطة نتوءات هدبية دقيقة موجودة على سطح الخلايا التى تبطن الشعب فتلفظ المخاط ومعه المواد الغريبة . فإذا كان الإفراز مسرفاً تعطلت كفاءة هذا التركيب الآلى الواقى .

إن السعال التهيجى ، وإفراز المخاط وإن كان مزعجاً فهو غير ضار عند معظم المدخنين . غير أن إسراف إفراز المخاط فى بعض الحالات يقلل من قوة الشعب على مقاومة العدوى ، فإذا تكررت الإصابة بالتهاب الشعب إصفر لون المخاط لشيوع الصديد فيه . وقد يؤدى التهيج المزمن

ـ بطريقة غير مفهومة تماماً ـ إلى ضيق الشعب ، فيكابد المصاب عسراً فى التنفس يزداد سوءاً ، وفى الوقت نفسه يتأثر النسيج الرئوى نفسه وهو مركب من تلك الخلايا الهوائية الدقيقة ، حيث يستمد الدم حاجته من أوكسيجين الهواء ـ فيفقد مرونته ويتدهور ، وعندئذ يزداد عسر التنفس سوءاً . ولعل هذه الحالة حالة التهاب الشعب المزمن ، وتمدد الرئة (الامفزيما) أكثر الأمراض انتشاراً فى الجزر البريطانية وأشدها تسبيباً للعجز والوفاة ، فمعدل الوفاة بهذا المرض فيها أعلى بكثير منه فى أى قطر من الدنيا ، فقد دل الإحصاء أن ١٠ ٪ من مجموع وفيات متوسطى العمر يعزى لهذا المرض . إذ يموت من الرجال فى سن العمل ٦٠٠٠ كل عام ويموت من النساء ربع هذا العدد فقط .

ويكاد لا يظهر هذا المرض المزعج بين الممتنعين عن التدخين . وهذا يدل بلا أدنى شك على أن التدخين وخاصة تدخين السجاير سبب رئيسى مهيىء ، فهناك أسباب أخرى لهذا المرض . وهو أكثر شيوعاً فى المدن عنه فى الريف ، وبين الفقراء أكثر منه بين الموسرين (معدل الوفاة بالتهاب الشعب بين العمال غير المهرة خمسة أضعاف المعدل بين طبقة المحترفين) . كما أن هناك بعض المهن التى تكثر فيها الإصابة بهذا المرض . ولا يمكن تعليل هذا التباين باختلاف عادات التدخين . فالمصابون بمرض التهاب الشعب الشديد ، هم من أهل المدن وأهل الريف ومن أرباب الحرف ومن الرجال والنساء ومن الفقراء والأغنياء ، من الذين كانوا وما زالوا يدخنون السجاير . أما تعليل الفارق فى الإصابة بالمرض بين الرجال والنساء فواضح تماماً ، إنه يرجع إلى الفرق بين استهلاك الرجل واستهلاك النساء من السجاير . ويحتمل على الأقل أن يكون تلوث الهواء بصفة عامة من أكبر الأسباب أهمية فى ظهور التهاب الشعب كما ولا بد أن تكون

هناك عوامل أخرى — لم يصل إليها فهمنا — تعلل اختلاف ظهور المرض بين الطبقات، وانتشار المرض انتشاراً فذاً فى الجزر البريطانية . فإذا ما اكتشفت هذه العوامل يصبح التحكم فيها أبعد أثراً فى منع الإصابة بالتهاب الشعب من الإقلاع عن التدخين . على أن السبيل الوحيد فى الوقت الحاضر لتجنيب الفرد الإصابة بهذا المرض هو الامتناع عن تدخين السجاير .

إن السعال البسيط الناشىء عن التدخين عادة ما يمكن تلافيه كلية بمجرد التوقف عن تدخين السجاير . أما فى حالة تفاقم التغير فى مسالك الشعب وتلف النسيج الرئوى وظهور عسر التنفس ، فالتوقف عادة لا يأتى بنتيجة إيجابية ، ولكنه يحول دون مزيد من التلف . ولهذا ينبغى المبادرة بالإقلاع عن التدخين عند ظهور المرض ليكون للإقلاع تأثيره وثمرته .

السل الرئوى :

إن هذا المرض الذى كان من أخطر الأمراض الصدرية فى الجزر البريطانية، قد أصبح علاجه اليوم ميسوراً جداً بواسطة المضادات الحيوية الحديثة . فاتجهت فى هذه الأيام درجة انتشاره بين الناس وقتله لضحاياه إلى هبوط وانحدار سريع . وسيصبح خلال جيل واحد نادراً جداً . أما مدى تأثر ظهور المرض بالتدخين فغير معروف على وجه التحقيق . فهذه مسألة لم يتناولها بحث مستفيض . وقد ظهر عند إدخال المسلولين المستشفيات ومقارنتهم بغيرهم من المصابين بأمراض أخرى أن مرضى السل كانوا من المسرفين فى التدخين ولكنهم كانوا عادة من المسرفين فى شرب الخمور . وقد وجد فى دراسة واحدة أن الارتباط بين السل واستهلاك الخمور كان أكثر وضوحاً منه بين السل والتدخين . ومن المحتمل أن يكون المفرطون فى التدخين وشرب الخمور ضرباً من الناس

أكثر استعداداً للإصابة بالسل . وهكذا تبقى هذه المسألة من غير حل .
بيد أن معظم الأطباء يعتقدون أن من الضار بأى مصاب بمرض رئوى
مزمن أن يستمر فى ممارسة عادة تسبب له السعال .

وليس هناك بعد التهاب الشعب المزمن مرض رئوى هام يرتبط
بالتدخين . غير أن الالتهاب الرئوى أكثر انتشاراً بين المصابين بالتهاب
الشعب المزمن ويحتمل أن يكون أشد فتكاً بهم . كما أصبح الربو يصيبه
المدخنين وغير المدخنين على السواء .

التدخين وأمراض القلب :

أمراض القلب وخاصة الذبحة الصدرية أكثر أسباب الموت بين
متوسطى الحال ومتقدمى السن فى جميع الأقطار الغربيـة . والذبحة
الصدرية معناها انسداد الشرايين التاجية التى تمد نفس عضلات القلب
بالدم . وينشأ هذا الانسداد من تغطية جدران الشرايين برواسب دهنية
أو من تجمد الدم وتسمى هذه الحالة بالجلطة الدموية . وفى حالة تجمد الدم
فى شريان تاجى يسمى الجلطة التاجية. فإذا وقع انسداد حاد فى شريان تاجى
رئيسى وصفت الحالة بأنها انسداد قلبى أو انسداد تاجى . وقد يقع الموت
فجأة إذا تعطلت الدورة الدموية فى جزء كبير من القلب. وقد يعيش البعض
بعد إصابة حادة ، فيحسون عادة وجعاً مبرحاً فى الصدر يستمر ساعات
كثيرة . فإذا كان إمداد القلب بالدم كافياً عند الإخلاد للراحة وغير
كاف أثناء الحركة ظهر الألم فقط عند بذل مجهود . فإذا كان إمداد القلب
بالدم غير كاف حتى مع الراحة أصيب القلب بالهبوط . والمرأة قبل
وصولها إلى سن اليأس أقل تعرضاً لهذا المرض من الرجل بكثير . أما بعد
ذلك فيصبح الجنسان سواسية فى الإصابة بهذا المرض .

وفى خلال الثلاثين أو الأربعين السنة الماضية ظهر أن مرض الذبحة الصدرية - وخاصة بين متوسطى الأعمار من شعوب الأقطار الغربية - فى تزايد، وقد ربطت هذه الزيادة بعوامل ازدياد الرفاهية والترف، كالإسراف فى الأكل مع الاجتهاد العقلى إلى جانب عوامل أخرى كازدياد تدخين السجاير الذى تناولته البحوث فى توسع .

ومن المعروف تماماً أن التدخين يسبب عند بعض المصابين بالذبحة آلاماً تشبه تلك التى تظهر بعد الإجهاد. وليس هذا بمستغرب، فقد أظهرت تجارب المعمل فى وضوح أن النيكوتين — على الأرجح — يجعل دقات القلب أسرع ، ويزيد العبء الذى يلتزم القلب بالقيام به . ولكن زيادة خطورة عرض ما لا تعنى . إن التدخين هو سبب التغير غير الطبيعى الذى يطرأ على الشرايين التاجية، ومع ذلك فقد شوهد فى جميع الدراسات التمهيدية عن أسباب الوفاة وعلاقاتها بعادات التدخين وجود ارتباط بين الموت بالذبحة الصدرية وبين تدخين السجاير . وقد وجد أن معدل الوفاة بين أولئك الذين أقلعوا عن التدخين قبل الشروع فى هذه الدراسات كان وسطاً بين معدل الوفاة بين المدخنين وغير المدخنين .

على أن الموقف هنا يختلف تماماً عن الموقف إزاء سرطان الرئة ، فهو نادر جداً بين غير المدخنين. ويظهر عند مسرفى التدخين بنسبة تزيد ثلاثين إلى أربعين ضعفاً . بينما ظهور الذبحة الصدرية مألوف بين غير المدخنين ويزيد فقط بين المسرفين فى التدخين بنسبة مرتين ونصف مرة . وإذن فالتدخين لا يمكن أن يكون سبباً رئيسياً لمرض الذبحة الصدرية ومن المحتمل أن يكون عاملا مشدداً بل ولا يكون كذلك . وكل ما فى الأمر إن الارتباط قائم بين التدخين وبين عوامل أخرى تؤثر فى المرض كالإرهاق

العقلى والمهن التى تستلزم الجلوس مع تناول الأغذية الدسمة — التى لوحظ أن المدخنين أكثر استهلاكا لها من غير المدخنين — وقد ظهر فى دراستين حقيقية راهنة ، وهى إن هناك ارتباطاً بين الذبحة الصدرية وبين شهق الدخان تؤكد تأثير التدخين المباشر. إلا أن هذا ليس دليلا، فأولئك الذين يشهقون الدخان قد يكونون ضربا من الناس يختلفون عن أولئك الذين لا يشهقونه وإنه لجد عسير أن نرى كيف يزيد التدخين من تعرض الشرايين للتدهور وهو أساس الإصابة بالذبحة الصدرية . غير أنه يمكن مع ذلك تصور مدى تأثير التدخين فى زيادة خطورة الإصابة بانسداد الشرايين التاجية. فالموت فى هذه الحالة ينجم عن اضطراب فى وتيرة ضربات القلب . وقد ظهر أن النيكوتين يزيد من جنوح القلب إلى الدق بلا نظم طبيعى . ومن الجائز أن يلاقى المدخن الذى يفشى النيكوتين جسمه — وهو مصاب بانسداد تاجى — حتفه المحتوم . بخلاف لو كان من غير المدخنين الذين قد تحرروا من النيكوتين .

ويجب أن ننتهى إلى القول ، إن الصلة بين التدخين وظهور الذبحة لم يقم عليها دليل ، هذا لا ينبغى وجود شبهة قوية فى أن تدخين السجاير يزيد على وجه التحقيق من خطورة المرض .

التدخين وامراض الدورة الدموية الاخرى (١) .

التدخين لا يسبب ارتفاعاً فى ضغط الدم بل بالعكس فمتوسط ضغط

---

(١) Thromls-Angiitis O Bliterans ويسمى أيضاً، مرض برجر يظهر بين اليهود والمدخنين . أظهر أعراضه التهاب الشرايين والأوردة الكبيرة ، وخاصة فى القدمين وتجلط الدم فيها ، وظهور تقلص عضلى عند المشى وتقرح القدمين ثم ظهور موت عليها (غنغرينه). وعلاجه ينحصر فى التوقف عن التدخين وبتر الأجزاء المصابة بالموات . (المترجم)

الدم عند المدخنين أميل إلى الانخفاض من ضغط الدم عند غير المدخنين. ومع ذلك فهناك مرض غير عادى يصيب الشرايين فيتعطل جريان الدم فيها وخاصة فى الساقين ، ويقتصر ظهوره على المدخنين فحسب . وتزداد الأعراض ظهوراً وسوءاً عند الاستمرار فى التدخين . وهذا مرده على أغلب الظن إلى النيكوتين الذى يقلل من جريان الدم فى الساقين حتى عند الأصحاء .

التدخين وأمراض متنوعة أخرى

قد شوهد أن أشكالا أخرى من السرطان عدا سرطان الرئة تصيب المدخنين أكثر مما تصيب غير المدخنين . فسرطان الفم والحلق والمرئ من ضمن أشكال السرطان التى تصيب مدخنى السجاير والغليون والسيجار أكثر مما تصيب غير المدخنين . ولهذا يتحذر القطع بمن يكون المسئول منهم . ومن المشاهدات العجيبة أن سرطان المثانة فى الرجال أكثر بين المدخنين منه بين غير المدخنين . وقد استبان فى دراسة واحدة أن هناك ارتباطاً باتاً بين سرطان المثانة وشهق دخان السجاير ، وهو ما يصعب تفسيره. فإذا كان التفسير ، اجتماع العلة والمعلول. فلا بد أن مادة سرطانية تنفصل عن السرطان وتمتصها الرئتان وتنزل إلى المثانة مع البول . ولكن البحوث لم تظفر للآن بالعثور على هذه المادة ومعرفة كنهها .

وقد ظهر أن ٦٢٦١ رجلا و ٢٦٠٦ إمرأة قد ماتوا بسرطان الفم والحلق والمرئ والمثانة فى سنة ١٩٦٠ ، وأن جزءاً ضئيلا من عدد هذه الوفيات قد عزى إلى التدخين. وأن أعراض قرحة المعدة ، وقرحة المصران الاثنى عشر يزيدها التدخين سوءاً. فالتدخين يزيد إفراز حموضة المعدة عند

بعض الناس . ولم يعد هناك شك على الاطلاق فى أن معدل شفاء قرح المعدة أبطأ عند من يستمرون فى التدخين عنه بين غير المدخنين. إلا أن هذا المرض مألوف بين غير المدخنين فى العالم كله من غير ارتباط بعادات التدخين . ومن المحتمل أن يلعب التدخين دوراً صغيراً فى ظهور قرح المعدة والاثنى عشر أو لا يلعب أى دور على الاطلاق. ولكنه على الوثوق يؤخر الشفاء ، وبالتالى يعرض المريض لاعتلال صحى طويل المـــدى ولمضاعفات خطيرة ، ويرفع معدل الوفيات بين المدخنين ، كيفما كان نوع التدخين ولا يفعل مثل هذا بغير المدخنين .

اثار أخرى للتدخين :

قد شوهد أن المدخنين أكثر تعرضاً لاصابات العمل عن غير المدخنين ، ولكن هذا لا يعنى كما دلت الدراسات أن معدل الوفاة من إصابات العمل على أنواعها المختلفة كان أعلى بين المدخنين منه بين غير المدخنين . والمدخنون بطبيعتهم لا يركن إليهم كما هو الحال مع غير المدخنين . وكثيراً ماتسبب سيجار المدخنين بسبب إهمالهم حرائق كثيرة فى المساكن والمصانع كل عام . وكثيراً ما عثر على مستلزمات التدخين فى مواقع الانفجارات فى مناجم الفحم التى سببت خسائر فى الأرواح والأموال ويستبين من هذا أن بعض المدخنين يصل بهم إدمان التدخين إلى تعريض حياتهم وحياة زملائهم إلى التهلكة إشباعاً لنزواتهم برغم تحريم التدخين فى مناجم الفحم .

ومعظم الرياضيين يقلعون عن التدخين إبان التمرين وذلك للاعتقاد الشائع أن التدخين « ضار بالهواء » أى يقطع النفس وهو أمر صعب

الاختبار إذ يتعين للوصول إلى هذا فحص الرياضيين الذين لا يدخنون ثم حملهم على التدخين فترات متفاوتة قبل إعادة فحصهم . وقد حاول بعضهم القيام بهذا الاختبار على ثلاثة عشر رياضياً، فوجد أن خمسة منهم ضعف أداؤهم مع التدخين مما يحمل على الاعتقاد أن التدخين يتلف قدرة بعض الرياضيين على الأداء دون سائرهم . وقد وجد أن التدخين يمنع فورية تغلغل الهواء فى رئات بعض الناس . ويبدو أن هذا هو سر قصور الأداء عند هؤلاء البعض . إذ تؤدى صعوبة تغلغل الهواء إلى عسر فى التنفس .

وللتدخين تأثير مستغرب على وزن الأطفال عند ما يولدون من أمهات مارسن التدخين إبان الحمل. فقد استبان أن متوسط أوزانهم أقل من متوسط أوزان الأطفال الذين لم تدخن أمهاتهم. وتعليل هذه الظاهرة غير مفهوم شأنها فى ذلك شأن جميع المشاهدات الأخرى التى لوحظ فيها تأثير التدخين. فقد يكون نقص الوزن مجرد صدفة ارتبط فيها الاستعداد لولادة أطفال ناقصى الوزن بالميل للتدخين إبان الحمل . على أن هناك من يقول بجواز تأثير النيكوتين على المشيمة مما يؤثر فى تغذية الجنين . وعلى رغم الواقع وهو أن الأمهات اللواتى يمارسن التدخين يلدن أطفالا ناقصى الوزن فليس له أهمية اكلينيكية تذكر ، وأن وقوع مضاعفات إبان الحمل وأثناء الوضع ليس له دخل بالتدخين وعدمه، كما أن تشويه أطفال المدخنات ليس بالأمر الحتمى الدائم . ويبدو أن صغر حجم أطفال المدخنات إن حصل من أسباب الولادات السهلة . وقد ظهر من إحدى الدراسات أن نسبة نقص الوزن لها صلة بعادات التدخين عند آبائهم أكثر مما هى عند أمهاتهم وهى مشاهدة عجيبة تغرب عن التفسير فمن العسير أن نتبين العلة والمعلول التى تبرز الواقع وهو أن الارتباط بين التدخين وبين مرض ما وبين شذوذ طبى لا يعنى حتمية كون التدخين هو العلة .

التدخين فى الميزان :

أما أن التدخين متعة عند الكثيرين فأمر مفروغ منه لا يحتاج إلى دراسة خاصة. أما لماذا يصبح عادة عند أضراب من الناس، ولماذا يشرعون فى التدخين أصلا ، وماذا فى التدخين حتى يصبحوا به شغوفين إلى هذا الحد؟ فسائل جديرة بالبحث .

كان التكوين السيكولوجى لأضراب كثيرة من المدخنين وغير المدخنين موضع دراسات عديدة فى أمريكا وفى انجلترا ، فوجد أن مدخنى السجاير أميل للألفة والاختلاط، وأن مدخنى الغليون أكثر انطواء حتى من غير المدخنين ، وأن المسرفين فى التدخين ذوو شخصية جمعت بين القلق والحمية والنشاط ، وأن غير المدخنين أكثر ثباتاً وهدوءاً ويمكن الاعتماد عليهم وأن المدخنين يميلون إلى تغيير أعمالهم وبيوتهم أكثر مما يفعل غير المدخنين. وظهر من إحدى الدراسات الأمريكية على المسرفين فى التدخين أعراض الخلل العصبى أكثر مما ظهر على المعتدلين فى التدخين .

ولم تكشف الدراسات الأمريكية والإنجليزية التى أجريت على تلاميذ المدارس إلا على النزر اليسير من أسباب تلوثهم بعادة التدخين . وليس من المستغرب أن يدخن أولاد المدخنين أكثر مما يفعل أولاد غير المدخنين وأن يدخن الأولاد الأكثر ذكاء أقل من أولئك الذين يقلون عنهم ذكاء . وقد أجاب معظم من سئلوا من الأولاد والبنات عن أسباب تدخينهم لأول مرة أجوبة لا تعدو نطاق القول إنهم إنما أرادوا إشباع فضولهم أو الشعور بوصولهم دور اليفاعة أو لمجرد قبول تدخين سيجارة قدمها لهم زميل . والرأى الشائع يقول إن التدخين لأول مرة مظهر من

مظاهر التحرر من القيود التى تفرض على الأطفال. ولم تكشف الدراسات عن الأسباب التى تجعل التدخين عادة ملازمة بمجرد الشروع فيه ، غير أن من الثابت أن الممارسات اليدوية المختلفة التى تصاحب التدخين تشيع اللذة فى نفسية المدخن أو تبدد على الأقل التوتر فيه بدليل ما يبديه المدخن من مختلف الإشارات اليدوية وما يظهر على أساريره من تعبيرات كغمز العينين وارتجاف عضلات الوجه، غير أنه وجد أن لعدم استمتاع المدخن بغليون غير مشتعل أو سيجارة غير مشتعلة مغزى له أهميته فمن المحتمل أن يكون الدخان نفسه وهو خليط من مركبات القطران والمواد الكيماوية الأخرى تنبعث منه الرائحة التى هى مصدر الإدمان. وتتباين رائحة الدخان تباينا هائلا، وقد يتعلق المدخن بإحداها وسرعان ما يتعلق بغيرها كما يحتمل كثيراً جداً أن يكون النيكوتين الذى يمتصه المدخن من الدخان هو أصل الإدمان . وعلى الرغم من أن الدراسات لم تتناول هذه النقطة إلا بقدر يسير إلا أنه شوهد أن حقن المسرف فى التدخين بمادة النيكوتين قد صرفه عن تدخين سيجارة إلى حين فالنيكوتين سم للأعصاب عند امتصاص مقادير كبيرة منه ، ومنعش للأعصاب ومنبه عند امتصاص المدخن لمقادير صغيرة منه فى أثناء التدخين. وهناك رأى يقول بجواز حدوث ميكانيكية أقرباذينية تنبه المخ . وإنه لمن العسير تماما دراسة الادعاء القائل إن التدخين يشيع فى المدخن استرخاء فى وقت فراغه ويحفزه على التركيز والتوفر على عمله. كما أنه لا يمكن عمل مقارنة مباشرة بين المدخنين وغير المدخنين من النواحى السيكولوجية الكثيرة التى تعنى وجود فروق فى متوسط إنتاجهم الذهنى . فالاختبارات على المسرفين فى التدخين بعد حرمانهم منه وعلى غير المدخنين بعد الإسراف فيه لا بد وأن يظهر فيها خلط بسبب ما تحدثه هذه التغيرات المفاجئة من اضطرابات عقلية وبدنية منوعة على مدى واسع.

وتشير التجارب الإكلينيكية بأن نسبة كبيرة قد تصل إلى الثلث من المسرفين والمعتدلين فى التدخين يقلعون عنه فى يسر بالغ بمجرد اقتناعهم بضرورة ذلك ، ويبدو أن مثل هؤلاء المدخنين ليسوا مدمنين فعلا فهم لا يعانون من غصص الحرمان أصلا أو لايعانون إلا قليلا. ويمكن وصفهم بأنهم مجرد مدخنين بحكم العادة . أما النسبة الباقية فهم فعلا وحقا من المدمنين الذين يعانون عند حرمانهم من التبغ إحساسات واضحة من القلق وحدة الطبع، وهى أعراض يستطيع التدخين أن يخفف من حدتها بسرعة وأعراض الحرمان فى هذه الحالات الحادة لا تستمر عادة طويلا ولكن الحنين للتبغ وخاصة فى الضيق والشدة قد يستمر شهوراً بل سنين عديدة .

وتزيد أوزان الكثيرين عندما يقلعون عن التدخين وذلك لمجرد أنهم يأكلون أكثر، فالتدخين يتلف شهوة الأكل ولهذا تجد المقلع عن التدخين بدلا من إشعال سيجارة بعد الأكل يقضم قطعة من الخبز أو البسكويت . إن زيادة الوزن هذه مؤقتة بل ويمكن إقلاله وذلك بتعمد الحد من كمية الوجبة. وليس صحيحاً مايدعيه المروجون للتدخين أحياناً بالقول إن خطر السمنة — فمعدل الوفاة بين الرجال على الأقل يتزايد مع استمرار تزايد الوزن فوق المعدل الطبيعى — أكبر من خطر الاستمرار فى التدخين فقد ظهر من جميع الدراسات التى أجريت على الرجال الذين أقلعوا عن التدخين ان الوفيات الناشئة عن جميع المسببات قد انخفضت إلى حد كبير يفوق ما تعرض له الذين قد داوموا على التدخين .

اخطار التدخين :

لعل السؤال الهام حقا الذى يجرى على لسان المدخن أو على لسان المقدم على التدخين والذى ينتظر عنه الجواب ، هو ما مدى المجازفة

فى التدخين ؟ فمرات التدخين واضحة لا تحتاج إلى تبيان . وقد أسفرت بحوث البريطانيين التى قام بها دول وهيل عن معدل الوفيات بين الأطباء وصلتها بالتدخين عن معلومات غاية فى السداد، فالبيان رقم (١) المأخوذ عن تقرير كلية الأطباء الملوكية « التدخين والصحة » يستبين منه أن فرق الخطر بين المدخنين وغير المدخنين من ذوى الأعمار الصغيرة أكبر منه على ذوى الأعمار المتقدمة. فأسباب الوفاة فى الأعمار المتقدمة كثيرة جداً لدرجة أن زيادة الخطر الناشئة عن التدخين تبدو صغيرة نسبياً . ولكنها بين الشباب من سن ٣٥ إلى ٤٤ حيث يدخن الواحد منهم ٢٥ سيجارة أو أكثر يومياً فمعدل الوفيات أربعة أضعاف معدل الوفيات بين غير المدخنين. ويوضح البيان رقم (٢) خطر الموت الذى يتعرض له الفرد فى فترة عشر سنوات وهو بين الخامسة والثلاثين والرابعة والسبعين .

البيان رقم (١) لمعدلات الوفاة من جميع المسببات
فى السنة بين ١٠٠٠ نسمة

السن	لا يدخنون	يدخنون		
		١ — ١٤ سيجارة فى اليوم	١٥ — ٢٤ سيجارة فى اليوم	فوق ٢٥ سيجارة فى اليوم
٣٤—٤٤	١ر١	١ر٥٦	١ر٥٥	٤ر٤١
٤٥—٥٤	٣ر٧	٥ر٥٦	٧ر١٨	١٠ر١٩
٥٥—٦٤	١٢ر٠	١٧ر٦٩	٢٠ر٣٧	٢٥ر٥٧
٦٥—٧٤	٣١ر٧	٤٧ر١٠	٤٢ر٠٩	٥٩ر٨٢

البيان رقم ٢ يوضح نسبة خطر الموت من جميع المسببات فى فترة عشر سنوات من سن الخامسة والثلاثين إلى سن الرابعة والسبعين

فترة عشر سنين	لا يدخنون	يدخنون		
		١ - ١٤ سيجارة فى اليوم	١٥-٢٤ سيجارة فى اليوم	فوق ٢٥ سيجارة فى اليوم
٣٥ - ٤٤	١ فى ٩٠	١ فى ٦٤	١ فى ٢٥	١ فى ٢٣
٤٥ - ٥٤	١ فى ٢٧	١ فى ١٨	١ فى ١٤	١ فى ١٠
٥٥ - ٦٤	١ فى ٨	١ فى ٦	١ فى ٥	١ فى ٤
٦٥ - ٧٤	١ فى ٣	١ فى ٢	١ فى ٢	١ فى ٢

ولتقريب مغزى هذه الأرقام نتناولها بمصطلحات سحب القرعة فنفترض أن الفرد الواحد يسحب كل عشر سنوات كرة واحدة من صندوق فيه كرة واحدة سوداء وعدد من الكرات البيضاء فإذا سحب الكرة السوداء مات فى السنوات العشر التالية . ويظهر من النسب الواردة فى البيان رقم (١) أنه يوجد لكل رجل لايدخن فى سن الخامسة والثلاثين كرة واحدة سوداء ضمن تسعين كرة بيضاء فى السنوات العشر التالية فى حين أنه توجد للرجل الذى يسرف فى التدخين كرة سوداء ضمن ثلاثة وعشرين كرة بيضاء فقط. ونستبين من هذا أنه على أساس بلوغ سن التقاعد العادى أن الرجل فى سن الخامسة والثلاثين معرض للموت قبل سن الخامسة والستين بنسبة ١٥ فى المائة أى أن لديه فرصة للبقاء بنسبة ٨٥ فى المائة فى حين أن الذى يدخن معرض للوفاة بنسبة ٣٣ فى المائة أى ضعف النسبة السابقة (أى لديه فرصة للبقاء بنسبة ٦٧ فى المائة) انظر الجدول رقم (٣) .

جدول رقم ٣ يوضح نسبة توقع الموت عند الرجال فى الخامسة والثلاثين قبل بلوغهم الخامسة والستين .

لايدخنون	١٥ فى المائة
يدخنون ١ — ١٤ سيجارة يومياً .	٢٢ «
يدخنون ١٥ — ٢٤ « «	٢٥ «
يدخنون ٢٥ سيجارة فأكثر	٣٣ «

وإنه لمن المهم جداً أن ندرك أن هذه الأرقام لاتعنى ضمنا أن المسرفين فى التدخين إذا أقلعوا عنه فإنهم يصلون إلى الأرقام المبينة فى هذا الجدول والخاصة بغير المدخنين فليس من الضرورى أن يكون الفارق بين المدخنين وغير المدخنين راجعاً إلى التدخين فحسب فهناك فوارق سيكولوجية كثيرة وفوارق أخرى قائمة بين المدخنين وغير المدخنين تؤثر فى معدلات الوفاة .

وتمثل الأرقام التى وردت فى الجدول الحد الأعلى للخطر الذى يمكن أن يحدث للمدخن من ذوى المهن فى بلاد الإنجليز أما الأخطار التى تتعرض لها الطبقة العاملة فأفدح من ذلك فالتهاب الشعب ويسمى مرض المدخنين يعرض العمال لخطر الموت بنسبة خمسة أضعاف الخطر الذى يتعرض له المهنيون . وقد دلت الدراسات جميعاً أن معدل الوفاة قد هبط بين الذين قد أقلعوا عن التدخين وهذا يوحى على وجه الوثوق أن الإقلاع عن عادة التدخين يقلل من التعرض للخطر ولكن هذا غير مؤكد فالمدخنون القادرون على الإقلاع عن التدخين قد يكونون بالغريزة أقل استهدافا للمرض من أولئك الغارقين فى الإدمان .

وهنا حق للمجتمع علينا أن يعرف عدد ضحاياه كل سنة نتيجة لوقوع

الأمراض التى يسببها التدخين جزئياً . ففى الفترة بين سن الثلاثين والرابعة والستين وهى عمر العمل والإنتاج يقتل بسرطان الرئة فى انجلترا وويلز ١٠,٠٠٠ رجل سنوياً ٨٠ فى المائة منهم أى ٨٠٠٠ رجل يصابون به على الأرجح بسبب التدخين ويموت ٦٠٠٠ بالتهاب الشعب . ولولا التدخين لما مات إلا عدد ضئيل منهم ، كما يموت ٢٠,٠٠٠ بالذبحة الصدرية غير أنه لا يمكن الجزم بالعدد الذى يذهب ضحية التدخين إلا أن المحافظين على القديم يقدرونه بالعشر أى بألفين ، ويموت ١٠٠٠ بقرحة المعدة والاثنى عشر يعزى منها نسبة صغيرة نسبياً إلى التدخين، ومن هذه الأرقام نستبين أن ١٦٠٠٠ من الرجال المنتجين يموتون كل سنة (وهو مايعادل ضعف عدد من يموتون بسبب حوادث الطريق من كافة الأعمار) وأن ١٠ فى المائة من هؤلاء الضحايا يموتون قبل سن الخمسين . وإنه لمن المحزن أن يشهدالناس كل سنة جنازة ١٦٠٠ ضحية بلا داع (أى ٤٤ يوميا) قد انتحروا بالتدخين ، ويجب ألا ننسى أن عدد الجنازات اليومية للضحايا من سن الخمسين إلى الرابعة والستين قد تضاعف تسع مرات وأنه كان من الممكن ألايموتوا لولا التدخين .

ماذا ينبغى أن نفعل ؟

هل من الضرورى تحريم تدخين السجاير لإنقاذ حياة الناس والمحافظة على صحتهم ؟ وهل هناك إجراء آخر أقصد سبيلا وأبعد أثراً ؟

منع تلوث الهواء

يدعوا إلى هذا الإجراء ويدافع عنه أولئك الذين يهمهم تشجيع تدخين السجاير أولئك هم صناع التبغ . ما من شك أن لتلوث الهواء تأثيراً ضاراً بالصحة وأنه على التحقيق يزيد من انتشار أخطر الأمراض الناشئة عن

تدخين السجاير ، وهى سرطان الرئة والتهاب الشعب . ولكن فى فنلندة حيث الهواء أقل تلوثاً مما يمكن أن يكون عليه هواء بلاد الإنجليز ـ التى عمها التصنيع ـ حتى بعد تنقيته كما هو المنتظر مستقبلا قد لوحظ أن استهلاك السجاير ومعدل الوفاة بسرطان الرئة يكاد يكون مرتفعاً بنفس المعدل فى الجزر البريطانية ، بل ولوحظ أيضاً فى البلاد التى يقل فيها تلوث الهواء أن مدخنى السجاير أكثر تعرضاً لسرطان الرئة والتهاب الشعب من الممتنعين عن التدخين . أن منع تلوث الهواء أمر مرغوب فيه إلى أبعد الحدود ولكن ليس فيه الوقاية الكاملة من أخطار تدخين السجاير .

إن الأكثرية العظمى من مدخنى السجاير يجدون متعة فى ممارسة هذه العادة بدون أن تتأثر صحتهم أو تقصر أعمارهم فهل يمكن حقاً أن نضن عليهم بهذه المتعة لننقذ أقلية من المدخنين من الوقوع ضحية للعجز والموت المبكر ؟ إننا لو استطعنا اكتشاف المتعرضين للخطر إذن لأمكننا تركيز إجراءات المنع عليهم دون التعرض للآخرين ولكننا للأسف لا نعرف فى الوقت الحاضر طريقة للتحقق من هوية هؤلاء المتعرضين . إن من تثبت إصابتهم بمرض الشرايين أو مرض الذبحة الصدرية أو قرحة المعدة عليهم بلا شك واجب الامتناع عن التدخين غير أن الأمر يتطلب أكثر من هذا فما من شك أن المدخنين الذين يصابون بسعال التدخين أكثر تعرضاً لمرض التهاب الشعب . وهناك بعض الأدلة على أن المدخنين الذين يسعلون أكثر تعرضاً للأصابة بسرطان الرئة ولكن كثيرين من المصابين بسرطان ينكرون لسوء الحظ سابق إصابتهم بالسعال . ولما كان نصف المدخنين تقريباً مصابين بالسعال كان منعهم من التدخين إجراء تعسفياً قاسياً ولهذا فنحن فى حاجة إلى أن نتبين طرقا أخرى يمكن التحقق بواسطتها من تعرض المدخنين لخطر خاص ، وذلك بمراقبة الأعراض والخصائص

السيكولوجية وما إليها ودراسة عادات التدخين عند عدد كبير من الناس لا يقل عن خمسين ألفاً ثم متابعتهم فى سنى حياتهم للملاحظة من يمرض منهم ومن يموت وبأى علة ماتوا ، وهو عمل ضخم وشاق ولكنه واجب لا بد منه .

وقد أجريت بحوث وافية عن إمكان تنقية الدخان من المواد الضارة فوجد أن دخان السجاير سحابة تحتوى على ذرات دقيقة (قطر الواحدة ١٠ إلى ٤٠ من المليون من البوصة) يحتمل أن يكون تركيبها الكيماوى واحدا ومن الصعب تماما التكهن بطريقة تنقية هذه الجزئيات مما تحتويه من عناصرها الخاصة المؤذية التى تسبب السرطان مثل النيكوتين والمواد القطرانية التى تحتوى المواد الكارسينوجينية (مسببات السرطان) غير أن بعض المواد المهيجة التى تشترك مع مسببات السرطان موجودة فى الدخان على شكل شبه غازى يمكن ترشيح بعضها واحدة بعد أخرى كما أنه يمكن بالطبع عمل مرشحات تحبس الدخان كله وفى هذه الحالة تنتفى المسرة التى ينشدها المدخن ومن ثم فهو لا يقبل عليها . ومن المسلم به نظرياً أن المرشحات (الفلتر) تزيل العناصر المساعدة على ظهور السرطان وبعضاً من القطران فتتلل من أخطار التدخين . غير أنه لا توجد طريقة يستطيع معها المدخن فى الوقت الحاضر أن يقول فيما إذا كان يختار سيجارة فى طرفها فلتر ومدى فاعلية هذ الفلتر . كما لا يوجد ما يضمن أن السيجارة التى لها فلتر صالح تكون أقل ضرراً من سيجارة بلا فلتر فللحكم على هذا يحتاج الأمر إلى ملاحظة عدد كبير من المدخنين الذين يقتصرون على استعمال هذه السجاير دون سواها وكذلك ملاحظة الآخرين الذين استمروا على استعمال سجاير من غير فلتر فى غضون عشر أو عشرين سنة ليمكن معرفة فيما إذا كان هناك فرق عند وقوع المرض فى كل فريق .

ويمكن أيضاً تكييف التبغ نفسه حتى تقل كمية القطران والنيكوتين فى دخان السيجارة المشتعلة . وهذا أيضاً إجراء محوط بصعوبات كما أنه يلزم له وقت طويل لمعرفة فيما إذا كان تدخين السجاير المصنوعة من هذا التبغ تقلل خطر التعرض لوقوع المرض عنه عند استعمال سجاير عادية . ويمكن اختبار مبلغ التهيج المباشر عند استعمال سجاير بفلتر أو سجاير مصنوعة من تبغ مكيف وذلك بملاحظة تأثير هذه السجاير على سعال المدخن وهو اختبار لا مناص منه .

إن جزء السيجارة الذى لا يشتعل يقوم مقام الفلتر إذ يتركز دخان الجزء المشتعل فى الجزء غير المشتعل فإذا اشتعل هذا الجزء أيضاً استقطر ما يحتويه من الشوائب مرة أخرى وبالتالى يكون دخان الجزء الثانى أكثر احتواء للمواد الضارة من دخان الجزء الأول . فإذا أمكن إقناع المدخنين بإطفاء السجاير قبل وصول الاشتعال إلى النصف الثانى منها أمكن على وجه التحقيق الحد من خطر التعرض (وهذا يزيد من مكاسب منتجى السجاير) ومن العسير تبين السبيل إلى إشاعة هذا التغيير فى عادة التدخين بدون خفض بالغ فى ثمن السجاير . وحتى مع هذا فمجموع عدد السجاير الذى يستهلكه الفرد سيزيد وبالتالى سيعود الخطر إلى مستواه الأصلى .

ولعل التغيير الممكن والأكثر احتمالا والذى قد يرضى المدخن وفى الوقت نفسه يقلل من التعرض للخطر هو إقناع المدخن بالإقلاع عن تدخين السجاير وبالاستعاضة بتدخين السيجار والغليون . ويمكن تشجيع هذا التحول برفع الضرائب على تبغ السجاير وخفضها على تبغ السيجار والغليون،وقد يؤدى هذا التحول على وجه التحقيق إلى إقلال كبير من خطر التعرض غير أن كثيرين قد يصيبهم من دخان الغليون والسيجار

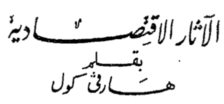
كرب بالغ لدرجة أنهم لا يجدون مبرراً إلا نادراً لتضحية النظافة والجمال في سبيل النفع الصحي .

وليس من المحتمل — كما يبدو — أن يسدى تقدم العلاج الطبي مساعدة تذكر لأولئك الذين تحطمت رئاتهم بالتدخين فريثما يصل التشخيص إلى التثبت من وجود السرطان في الرئتين يكون السرطان قد جاوز الرئتين وأصبح ميئوساً من شفائه في ٨٠ في المائة من الحالات . ولا بد لشفاء ال ٢٠ في المائة الباقية من أن يكون السرطان لم يجاوز الرئتين وأن يقوم جراح باستئصال الرئة المصابة أو جزء منها . غير أنه يحتمل في حالة واحدة من هذه العشرين أن يأمل المصاب أن يعيش خمس سنوات بعد التشخيص فمعظمهم يعيش أقل من سنة . وقد يصل علم الطب في أي وقت إلى اكتشاف وسيلة ثورية جديدة لإيقاف نمو السرطان وانتشاره في سائر أجزاء الجسم غير أنه لا توجد في الوقت الراهن أي علامة تشير إلى مثل هذا الاكتشاف بالنسبة إلى سرطان الرئة .

إن المضادات الحيوية . تستطيع أن تقصر مدى الإصابة بالتهاب شعبي حاد إلا أنها لا تستطيع إلا تخفيفاً طفيفاً في عسر التنفس الذي يضايق ويكرب الشخص المصاب بالتهاب شعبي مزمن . ومع ذلك فالتبكير بالإقلاع عن تدخين السجاير مفيد لدرجة رائعة .

وإذن فليس هناك من طريقة محققة للتخلص من أخطار تدخين السجاير أفضل من الامتناع عن تدخينها . إن هذه العادة الاجتماعية الشائعة ومن ورائها ضغط الإعلان الماهر الشامل يشجع على الأخذ بهذه العادة الخطرة

فى تزايد مستمر . ولقد أقلع كثير من الأطباء عن تدخين السجاير عندما لمسوا المآسى المروعة التى تنزل بمرضاهم كل يوم . وليت الرأى العام فى هذه البلاد أن يواجه الحقائق كما فعل الأطباء، إذن لاقتنعوا أن يهبوا بإدراك وحزم وحذر لوقف التدخين، وإذن لوصلوا بعملهم هذا إلى ضمان صحة ممتعة مديدة لهم وللأجيال المقبلة .


الآثار الاقتصادية
بقلم
هارفي كول

ينفق الجمهور البريطانى فى التبغ شلناً وستة بنسات من كل جنيه من إيراده . وأثر هذا الاقتصاد الوطنى من نواح كثيرة أهون بكثير مما تشير به هذه الأرقام المجردة، فعدد الذين يشتغلون مباشرة فى صناعة التبغ ليس كبيراً . وحتى من ناحية التوزيع فعدد الذين يكسبون معاشهم من التبغ مبـــاشرة فى حكم المتوسط ، غير أن تجارة السجاير — وهى نسبياً لا تكلف الكثير — مصدر كسب لعدد كبير من صغار التجار يعيشون على هامشها رغم أن المكاسب الفعلية من السلع التبغية طفيفة فى حد ذاتها.

إن وطأة صناعة التبغ التى تقع على كاهل الدخل الوطنى كبيرة جداً فعشرون فى المـائة من دخل الحكومة السنوى فى الوقت الحاضر مصدره الضرائب المفروضة على التبغ .

إن لبريطانيا أهمية كبرى فى الاقتصاد الدولى فاستهلاكها للتبغ جسيم جداً وأى انسحاب من هذا الوضع يؤثر فى أسعار التبغ التى يحصل عليها منتجوه فى أقطار عديدة مما يترتب عليه هبوط جوهرى ملحوظ فى مستويات المعيشة فى تلك الأقطار إلى حد ملموس . وبينما ترتفع إيرادات الحكومة من الضرائب المفروضـة على التبغ يهبط الدخل القومى بسبب الموت المبكر وتفاقم الأمراض التى تعزى إلى عادة التدخين وإلى تعطل الإنتاج والتى تربو بكثير على التعطل الذى تسببه الاضطرابات .

وقد حدث فى أوائل القرن السابع عشر أن رفع جيمس الأول ضريبة التبغ من شلنين على الرطل كما كانت مفروضة فى أيام اليزابيث إلى ستة

شلنات وعشرة بنسات فارتفع بذلك ثمنه على ثمن الفضة . وقد كتب جون أوبرى عن ذلك العصر يقول « سمعت من شيوخ الفلاحين من جيراننا أنهم كانوا إذا ذهبوا إلى سوق مالزبورى أو سوق تشينهام يختارون أكبر شلناتهم ويضعونها فى كفة الميزان ليحصلوا بوزنها تبغاً .

وفى هذه السنة ينفق الجمهور قرابة ١٢٥٠ مليون جنيه استرلينى فى شراء حوالى ٢٨٠ مليون رطل من التبغ المصنوع أى بسعر الرطل أربعة شلنات وعشرة بنسات . ولما كان سعر الرطل من الفضة ستة شلنات وخمسة عشر بنساً فثمن التبغ ما زال إلى وقتنا الحاضر يساوى ثلثى ثمن هذا المعدن النفيس .

وقد دل إحصاء الحكومة عن نفقات الأسرة فى سنة ١٩٦١ أن الأسر فى بريطانيا أنفقت فى المتوسط عشرين شلناً وستة بنسات على التبغ كل أسبوع فى حين أنها لم تنفق على القوت فى الأسبوع سوى أربعة شلنات وأحد عشر بنسات وعلى الرغم مما تثيره هذه الأرقام من ألم فإنها دون الواقع فقد قالت الإحصاءات عند حصر النتائج « لم يدخل فى حسبان هذه النتائج الأموال التى تنفق فى شراء الخمور والتبغ وفى تناول وجبات خارج منزل الأسرة واللذائذ كالشكولاته والحلوى والمثلجات، ويمثل التبغ ثلث النفقات التى لم تدخل الحساب .

وقد بلغ مجموع ما أنفق فى استهلاك التبغ فى سنة ١٩٦١ حوالى ١٢١٨ مليون جنيه استرلينى بزيادة ٢٨٣ مليوناً أى ٣٠ فى المائة تقريباً من متوسط النفقات فى السنوات الخمس السابقة . وطبيعى أن لتزايد شهية وزير المالية دخلا كبيراً فى هذه الزيادة فقد ارتفعت ضريبة التبغ فى ميزانية ١٩٦٠ إلى الرقم

القياسى وهو ٤ بنسات و ٦٤ شلنا عن كل رطل تبغ، ثم طفرت هذه الضريبة إلى أكثر من ٧٠ شلناً بعد الزيادة التى اقترحها مستر سلوين لويد فى يوليه ١٩٦١ وقدرها ١٠ فى المائة على معظم الضرائب غير المباشرة ، وقد بلغت زيادات الأسعار بما فى ذلك الزيادة التى فرضتها دور الصناعة وهى ١٥ فى المائة من أسعار السنوات الخمس ١٩٥٦ — ١٩٦١ أى أن الكميات الفعلية التى استهلكت بلغت ١٣ فى المائة أى أكثر بقليل عن ٢ فى المائة سنويا .

وفى سنة ١٩٦١ بلغ الإنفاق الفعلى على التبغ ٧ فى المائة من مجموع نفقات المستهلك (وصل إلى ٨ فى المائة عند تجميع عناصر النشرة الرسمية لأسعار البيع بالتجزئة) الذى يستقطع من نقوده جزءاً أكبر مما ينفقه فى الوقود والنور والأثاث وفرش أرضية منزله . فعدد السجاير التى دخنها المدخنون بلغ ١٢٠ بليون سيجارة أى ٢٤٠٠ سيجارة لكل رجل وامرأة وطفل من سكان الجزر البريطانية . ولما كان عدد المدخنين ٢١ مليونا فعدد السجاير التى دخنها الفرد الواحد ٦٠٠٠ سيجارة ولما كان المدخنون ٧٥ فى المائة من الرجال و ٥٠ فى المائة من النساء (وهى أعلى نسبة سجلها الإحصاء) فإن متوسط مايدخنه الرجل فى اليوم ١٩ سيجارة وما تدخنه المرأة عشر سجاير . وما دمنا فى معرض الكلام عما يدخنه الرجل والمرأة فيجدر القول بأنه بينما تدخن امرأتان مقابل ثلاثة رجال وأنهما تدخنان نصف الكمية التى يدخنها الرجال ، فإن هذه النسب قد أصبحت أضيق . ومن المظنون أن زيادة استهلاك السجاير منذ اندلاع حرب ١٩٣٩ بنسبة ٥٦ فى المائة ترجع إلى تدخين النساء للسجاير .

ولم يزدهر تدخين أنواع التبغ الأخرى بالنسبة التى ازدهر بها تدخين السجاير فعادت تدخين الغليون قد تدهورت حتى أصبحت كمية التبغ التى

تستهلك بالغليون نصف الكمية التى كانت تستهلك قبل الحرب بل لقد وصلت إلى الثلث بعد سنة ١٩٥٠ وأصبحت المبيعات من تبغ الغليون أكثر بقليل من مبيعات التبغ الذى يلفه الناس بأيديهم لاستعمالهم الشخصى وبلغ عدد المدخنين الذين ظلوا على ولائهم للغليون دون سواه مليوناً أو يزيد قليلا . وهم وغيرهم ممن يدخنون الغليون أحياناً يكادون لا ينفقون ٦ فى المائة من مجموع ما ينفق فى التبغ على الرغم من أن تدخين السيجار قد دالت دولته من زمن بعيد فإنه قد استرد فى السنين العشرة الأخيرة شيئاً من مكانته إذ نجد اليوم ثمانية أشخاص يدخنون السيجار مقابل ٧٠٠٠ يدخنون السجاير وقد كانوا أربعة فقط منذ سنة ١٩٥٠ عندما كان المستهلك من التبغ لصنع السيجار مليونى رطل مقابل خمسة ملايين رطل فى سنة ١٩٠٧ عندما بدأت تزحزح السيجار عن مكانته .

وهكذا أصبحت السجاير فى أشكالها المختلفة تستنفد ٩٠ فى المائة من مجموع التبغ المستهلك فى بريطانيا . ونجد هذا الطغيان واضحا فى قائمة تضمنت أسماء العلامات التجارية نشرت فى إحدى المجلدات السنوية واستنفدت خمسين عمودا طبعت بأحرف صغيرة واستنفدت ١٧ صفحة من الكتاب إلى جانب ١٩ صفحة خصصت للدعاية لسلع لها صلة بالتدخين وتستهوى المدخن الشغوف بالتنويع .

ومن العجيب أن صناعة السجاير وهى تستنفد من مصروف الدولة هذا القدر الكبير لا تحتاج إلا عدداً قليلا من الأيدى العاملة وأن ٩٠ فى المائة من دخل مصانع الجملة يستغرق فى الضرائب .

إن أقل من ٤٠٫٠٠٠ عامل يشتغلون بتصنيع التبغ نصفهم يستخدمه

مصنعان فقط هما بلايرز وولز لصناعة السجاير فى نوتنجهام وبريستول على التوالى ، وهما تابعان لشركة امبريال للتبغ . وهذه القوى العاملة موزعة فى أنحاء البلاد كما يوضحه الجدول رقم ٤ حسب إحصاء إبريل سنة ١٩٦٢ .

البيان رقم ٤ :

ميدلاندز	٨٣٥٠	إيست سوث	٤٧٢٠
سوثوست	٨٤٤٠	نورث	١٣٨٠
لندن سوث إيست	٦٢٥٠	سكوتلاند	٢٦٦٠
نورث وست	٧٥٤٠	ويلز	٤٢٠

وكان عدد العاطلين فى نوتنجهام فى نفس التاريخ ٤٤٢٣ أى ٩ر١ فى المائة من مجموع القوى العاملة (وهى نفس النسبة فى الدولة بصفة إجمالية فى حين كان عدد العاطلين فى بريستول ٢٤٧٣ أى ٤ ر ١ فى المائة . فإذا فرض أن صناعة التبغ توقفت بين يوم وليلة فإن معدل البطالة فى هذه المدن يتضاعف ثلاث مرات ، إلا أن الوظائف المحلية يقوم بها خمسة فى المائة فقط .

إن صناعة التبغ تقوم على مكسب يفوق المعدل بقليل وعلى ساعات عمل أطول بقليل مما هو الحال فى الصناعات الأخرى بصفة إجمالية ففى إبريل ١٩٦٢ بلغت معدلات الأجور وساعات العمل فى صناعة التبغ بالمقارنة مع جميع الصناعات الأخرى كما هو مبين فى الجدول رقم ٥ .

البيان رقم ٥ :

	صناعة التبغ		جميع الصناعات الأخرى	
	الأجور	ساعات العمل الأسبوعى	الأجور	ساعات العمل الأسبوعى
	فارزنج بنس شلن		فارزنج بنس شلن	
الرجال	٢ ١٤ ١٥	٤٤ر٧	١٠ ١٢ ١٥	٤٧ر٣
الفتيان	٤ ٩ ٨	٤٣ر٠	٣ ١ ٧	٤٣ر٥
النساء كل الوقت	٧ ٤ ٩	٤١ر٢	٢ ١٧ ٧	٣٩ر٦
« بعض «	٤ ٩ ٤	٢١ر٥	٥ ١ ٤	٢١ر٧
الفتيات	٠ ١٥ ٦	٤١ر٠	٦ ٤ ٥	٤٠ر٤

وهكذا يشتغل الذكور معدلا أسبوعيا أقصر مع ارتفاع أجورهم عن أجور غيرهم فى الصناعات الأخرى، يضاف إلى ذلك أن معدل أجورهم فى الساعة يزيد ١٠ فى المائة عليها فى الصناعات الأخرى .

وقوام القوى العاملة على وجه التقريب ٣٤ فى المائة رجال ، ٢ فى المائة فتيان ، ٤٥ فى المائة نساء طول الوقت ، ١٠ فى المائة بعض الوقت ، ٩ فى المائة فتيات . وكانت الأجور الأسبوعية فى أكتوبر سنة ١٦٩١ ٤٠٠ر٠٠٠ جنيه أى بمعدل ٢٠ مليونا من الجنيهات سنويا وهو مبلغ ينقص بالفعل عن الأرباح التى حققتها شركة امبيريال توباكو وحدها فى سنة ١٩٥١ وهذا يؤكد عدم الأهمية العمالية النسبية فى تكاليف صناعة التبغ كما يوضح ضآلة الدور الذى تلعبه هذه الصناعة فى تشغيل العمال فمن بين تسعة ملايين عامل صناعى يشتغل فى صناعة التبغ ٥ر٤ فى المائة فحسب .

وقد اضمحلت سيطرة أمبيريال توباكو عن ذى قبل ففى سنة ١٩٥٩ بلغت مبيعاتها ٦٣ فى المائة من مجموع مبيعات التبغ وبلغت مبيعات شركة جولاهر وهى أقرب المنافسين لها أقل من ٣٠ فى المائة بينما كانت مبيعاتها وهى فى شأوها سنة ١٩٤٧ ٧٨ فى المائة من مجموع الإنتاج ، ومبيعاتها من السجاير فقط ٨١ فى المائة من مجموع مبيعات السجاير .

وكان إنتاج الشركات الأخرى غير أمبيريال توباكو وشركة جولاهر أقل من ٧ فى المائة . ويبدو أن الحجج التى قدمتها شركة أمبيريال توباكو معارضة منها فى تنفيذ توصيات لجنة الاحتكارات وهى تجريدها من ٤٢ فى المائة من أسهمها لخلق منافسة جوهرية قد وجدها رئيس لجنة التجارة ذات وجاهة ووزن ووجد أن أى شكل من أشكال الصناعة يجب أن تكون حتما صورة أغلب ملامحها تشبه ملامح شركة أمبيريال توباكو نفسها، ففى الواقع أن شركة أمبيريال فضلا عن أن لها ضمانا جوهرياً فى شركة جولاهر فإنها قد بسطت ومدت أجهزة الحس فيها إلى ميادين أخرى متصلة بالتبغ فاهتمت بأجهزة المراقبة فى شركة فيتلينز وخلقت أفرعاً كثيرة لبيع التبغ بالفرق وجعلت لها نفوذاً فى شركة التبغ البريطانية الأمريكية ، ولها نشاط عبر البحار واستحوذت لنفسها على ضمانات قيمتها ٢٥ فى المائة من ممتلكات شركة مولينز التى تسيطر على صناعة السجاير وعلى آلات تعبئتها كما تحكمت فى ٢٥ فى المائة من الأصوات التى تدير دفة الأمور فى شركة مولينز وذلك بتملكها أسهماً عادية قيمتها ١٧١٦٠ جنيهاً من الأسهم التى أصدرتها الشركة البريطانية الأمريكية وقيمتها ١٫٦٨٠٫٠٠٠ من الجنيهات كما احتفظت لنفسها بعدة استمارات ثانوية فى صناعة وتوزيع التبغ يدخل فى نطاقها مراقبة شركة أردات والاشتراك فى ملكية روبرت سنكلير بائعى التبغ

(الدخاخنية) . ومن الأمثلة على أساليب المراقبة التى بثتها فى كل مكان إشرافها على شركة موليز التى تنتج أكثر من ٥٠ فى المائة من الآلات التى تستخدم فى تصنيع التبغ وحصولها على ترخيص من البيوت الأمريكية بالتصنيع . وبفضل ما لشركة أمبريال من صفتين متوائمتين مسيطرتين هما صفتها كعميلة وصفتها كحاملة أسهم استطاعت أن تصل إلى عقد اتفاق مع شركة موليز رتبت لها بمقتضاه الحق فى استعمال النموذج الأصلى لأى آلة جديدة تخرجها شركة موليز وذلك لمدة ستين يوماً وفى أولوية التسلم قبل أية شركة من الشركات الصناعية الأخرى . وعلى هذا النحو استطاعت أن تكون أول من قدم للسوق سيجارة تحمل فلتر فى طرفها قبل أية شركة من منافسيها فى سنة ١٩٤٩ وأن تضمن لنفسها سبق المصانع الأخرى فى تقديم العلبة التى تفتح من أعلى بمجرد دقها بالأصبع .

وقد بلغت قيمة مبيعات شركة أمبريال توباكو ٥٩٢ مليون جنيه فى سنة ١٩٥٦ أنفق منها ٧٫٤ فى المائة ثمناً للتبغ، ٥٫٧٥ فى المائة للتصنيع . وبلغ إجمالى الربح ٣٫٦ فى المائة فى حين أن الباقى وقدره ٨٣٫٣ فى المائة ذهب لخزينة الدولة ضرائب . وبلغ صافى ثمن المبيعات من غير الضرائب قرابة مائة مليون جنيه استرلينى. وكانت الأرباح بالنسبة إلى هذا المبلغ ٢١ فى المائة تقريباً . وينبغى بالطبع ملاحظة أن صانعى التبغ يرصدون مبالغ كبيرة لتخزين التبغ اللازم للتصنيع غير أنه يمكن إنقاص هذه المبالغ إلى حد أدنى بواسطة استعمال مخازن الإيداع .

وبمقارنة الأوضاع فى صناعات أخرى كثيرة نجد أدلة واهية على أن شركة أمبريال توباكو احتكارية وذلك ناشىء عن كفايتها الاقتصادية التى تمشى وراءها . وقد وجدت لجنة الاحتكارات التى قدمت تقريرها فى سنة

١٩٦١ أن الوقت اللازم لإنتاج مليون سيجارة قياسية بواسطة الشركات المختلفة يتراوح بين ١٧٨ ساعة بشرية وبين ٣٤٥ ساعة وأن مصانع ولز وبلايرز قد سجلتا أصغر الأرقام .

وهذا بالطبع لأن الشركة تجد فى متناولها آلات جديدة بشروط طيبة فى أول فرصة توجد فيها ولأنها تعمل على مستوى أكبر من مستوى منافسيها باستثناء جولاهر . غير أن مستوى الكفاية الإنتاجية العالية نسبياً يبقى وينعكس جوهرياً فى أرقام عالية من المحصول الصافى ، ينتجه كل فرد من القوى العاملة فى التبغ أكثر مما هو الحال فى الصناعات الأخرى . وبتعبير اقتصادى محض نقرر أن إعادة توزيع القوى العاملة التى تعمل فى التبغ على أعمال أخرى من الجائز أن يؤدى إلى انكماش إنتاج التصنيع البريطانى أكثر من تقدمه .

إن نفس الأموال الضرورية للتشغيل التى يظهرها هدف تصنيع التبغ ليس لها ند من معدلات كسب مشابهة فى التوزيع . . إن تعداد التوزيع سنة ١٩٥٧ تناول المنافذ المسئولة عن بيع السلع التبغية وقيمتها ٦٣٧ مليون جنيه من أصل المبالغ التى دفعها المستهلكون للبائعين لها وقيمتها فى هذه السنة ٩٨١ مليون جنيه . ويرجع الفرق بين المبلغين إلى ما دخل فى حساب المحلات العامة والفنادق وما إليها .

ومن المبلغ ٦٣٧ مليون جنيه قامت المجموعة من بائعى الحلوى وموزعى الصحف وبائعى التبغ (الدخاخنية) ببيع ما قيمته ٣٨٨ مليون جنيه .

وفى الواقع أن المبيعات من التبغ فى هذه المحلات تقدر ب ٥٥ فى المائة من جميع مبيعات هذه المحلات وقيمتها ٦٩٢ مليون جنيه استرليني فى سنة ١٩٥٧ .

وقد ظهر من إحصاء التوزيع أن معدل إجمالى هوامش الربح فى مجموع حركة البيع كان أقل منه فى جميع القطاعات الأخرى التى تناولها إحصاء التوزيع إذ بلغ ١٤٫٩ فى المائة مقابل ٢٢٫٣ فى المائة فى محلات البيع بالتجزئة كما بلغ ١٧٫٧ فى المحلات التى اندمجت فى مؤسسات تضم عشرة أفرع أو أكثر بينما لم يبلغ فى مثيلتها من المحلات الصغرى أكثر من ١٤٫٦ فى حين أن هوامش الربح أكثر من ٣٠ فى المائة فى معظم المحلات التى لا تتجر فى الأغذية كمحلات بيع الكتب والخزف والزجاج والمجوهرات .

وقد وضح من الإحصاء أن بيع السجاير والتبغ وهو يمثل نصف حركة البيع فى هذه المحلات يحقق هوامش ربح أقل مما يحصل عليه بائعو الحلوى وبائعو الصحف الذين يبيعون السجاير فى نفس الوقت على أساس أن ما قدمته شركة أمبريال للجنة الاحتكار جائز الأخذ به كمرشد فى هذه التجارة بصفة عامة .

ثم ظهر بعد ذلك أن الربح المسموح لبائعى السجاير بالتجزئة تراوح بين ١٠٫٤ فى المائة و ١١٫٤ فى المائة فى حين أن ربح بائعى التبغ ينقص عن هذا قليلا .

وقد ظهر فى وقت الإحصاء فى سنة ١٩٥٧ وجود طبقة واحدة فقط

من المحلات يقل ربحها عن ربح بائعى التبغ (الدخاخنية) وهى طائفة تجار البقالة والمواد الغذائية حيث يبلغ متوسط العائد ١٤ر٤ فى المائة وهذه مطابقة عجيبة غير أنها لا تحتمل غشاً أو خداعاً إذ تأتى هذه الطائفة بعد محلات بيع الصحف ومحلات بيع الحلوى على اعتبارها ثانى ميدان أساسى لبيع التبغ بالتجزئة. وقد بلغت قيمة مبيعاتها فى سنة ١٩٥٧ ١٣٢ مليون جنيه استرلينى أى أكثر من ٢٠ فى المائة من مجموع المبيعات فى هذا الميدان وثلث مبيعات الحلوى وبائعى الصحف .

وبينما يتم نصف حركة بيع التبغ بالجملة فى محلات البقالة والأغذية فإن هذه الحركة لا تمثل إلا ٨ر٥ فى المائة فقط من مجموع مبيعات البقالة التى تبلغ ١٥٥٦ مليون جنيه استرلينى .

وللسجاير والتبغ أهمية ضئيلة تتفاوت عند تجار التجزئة الآخرين . ففى سنة ١٩٥٧ بلغت قيمة المبيعات من السجاير فى محلات الأغذية الأخرى ١٩ مليون جنيه استرلينى وهذه تمثل ٥ر١ فى المائة من مجموع حركة البيع فيها وقدرها ١٢٣١ مليون جنيه استرلينى ، وقد بلغت مبيعات محلات بيع الخضر الشأو الأعلى إذ بلغت ٦ر٣ مليون جنيه استرلينى وأتت بعدها محلات بيع الخبز إذ بلغت مبيعاتها ٥ر١ مليون حنيه سترلينى ثم محلات بيع منتجات الألبان إذ بلغت مبيعاتها ٦ مليون جنيه استرلينى .

وقد باعت المحلات المتخصصة ببيع الملابس من السجاير ما قيمته ٣ر مليون جنيه استرلينى فى حين باعت محلات بيع المصنوعات الصلبة سجاير بمبلغ ٤ر مليون جنيه استرلينى اختصت بنصفه محلات بيع الأدوات الحديدية .

وقد باعت المكتبات سجاير قيمتها ٤ر١ مليون جنيه استرلينى وهو

ما يعادل ١ر٥ فى المائة من مجموع حركة البيع فيها ، وهى نسبة وصل إليها تجار الخضر وحدهم من بين الفئات الأخرى التى ذكرت فيما سبق .
وقد باعت محلات المجوهرات سجاير بمبلغ ١ر٩ مليون جنيه استرلينى، كما باعت الصيدليات بمبلغ ١ر٦ مليون جنيه استرلينى وهذا يعادل أقل من ١ فى المائة من قيمة حركة البيع فيها . وقد باعت المخازن والهيئات المختلفة الأخرى ما قيمته قرابة ١٠ مليون جنيه استرلينى ، وهذا يعادل أقل من ١ فى المائة من قيمة مجموع حركة البيع فيها .

وقد باعت — من غير ترخيص — محلات كالحانات وهى من أهم محلات بيع التبغ والسجاير بالتجزئة ما قيمته ٩ر٣ مليون جنيه استرلينى ضمن إجمالى حركة البيع فيها وقدره ١١٢ مليون جنيه استرلينى وهذا يعادل ٨ فى المائة من قيمة مجموع حركة البيع فيها .

ويتبين من الأرقام التى ذكرناها فيما سبق أن تجارة التبغ ذات أهمية عظمى لدى بائعى الحلوى وبائعى الصحف فحسب كما يجدها البدالون والبائعون من غير ترخيص ذات نفع لهم على اعتبارها مصدراً ثانوياً للتجارة .

ويستحيل على الحوانيت الصغيرة التى تعد بالألوف أن تستمر فى تجارتها بدون بيع السجاير رغم أن هامش الكسب منها أقل بكثير من هامش الكسب من السلع الأخرى التى يتداولونها .

فى سنة ١٩٥٧ كان يوجد ٧٧٤٤٠ حانوتاً لبيع الحلوى وبيع الصحف وبيع التبغ (دخاخنية) وعلى الرغم من عدم وجود أرقام إحصائية دقيقة فالواضح ان الأكثرية العظمى من هذه الحوانيت كانت تقوم ببيع السجاير .
ولما كان هذا الرقم قد زاد ٢٨٠٠ على الرقم الذى كان موجودا فى ١٩٥٠

فمن المنظور أن يكون عدد هذه الحوانيت قد أصبح اليوم قرابة ٨٠٠٠٠ كلها حوانيت صغيرة مستقلة . وفى سنة ١٩٥٧ كان عدد الحوانيت المندمجة فى مؤسسات تهيمن على عشرة متاجر أو أكثر ٦٣٦١ فيكون الباقى يتراوح بين ٥٠٠,٠٠٠ ، ٦٠٠,٠٠٠ معظمها يديره رجل واحد لكل حانوت ويبيع فيه أنواعاً مختلفة من السلع التى يفتقر إليها السكان المجاورون للحانوت افتقاراً متواصلا مما يضطر صاحبه إلى فتح حانوتة ساعات طويلة متواصلة ، ولهذا فالبيع بالتجزئة يقع على عاتق هذه الحوانيت . وقد ثبت أنه على الرغم من تداول ١٠ فى المائة من تجارة بريطانيا فى هذه الحوانيت (أى ٥ فى المائة من مجموع تجارة التجزئة) فإن هذه الحوانيت تقوم بلا شك بوظيفة قيمة للدولة لا تقاس كلية بكفايتها الاقتصادية . وإن أى خسارة تنزل بها تسبب انقصاما وقيام صعوبات هائلة تستدعى ضمن أمور أخرى خلق أنظمة جديدة لتوزيع الصحف والحلوى والمثلجات وهذا يرفع أثمانها على أساس أقل الافتراضات وهى أن تخطيط أنظمة جديدة يستلزم ربحاً للقائمين عليها يزيد على ما يقبله التاجر المتقاعد أو نصف المتقاعد الذى يعمل بمفرده فى حانوت لبيع التبغ والسجاير فهو يكتفى بدخل قليل فى مقابل عمله الشخصى .

وفى سنة ١٩٥٧ كان عدد المستخدمين فى بيع الحلوى والصحف وبيع التبغ والسجاير يربو على ٢٨٥,٠٠٠ شخص فى حين أن المشتغلين بالبيع بالتجزئة كانوا فى نفس السنة أقل قليلا عن مليونين من الأنفس وكان ٦٠ فى المائة من هذا العدد تقريباً من الإناث وكان ٢٥ فى المائة من هذا العدد أى ٧٢,٣٠٠ من المالكين المشتغلين والمساعدين من غير أجر ، وكان ٥٧,٠٠٠ يشتغلون كمستخدمين طول الوقت ، ثلاثة أرباعهم من الإناث وكان ١٣٤,٠٠٠ يشتغلون كمستخدمين جزءا من الوقت ، ثلثاهم من

الذكور. وكانت حركة التعامل فيما بينهم ٧٠٠ مليون جنيه استرليني. وكان نصيب الهيئات التي يندمج فيها عشرة فروع أو أكثر من هذا التعامل مبلغ ٨٠ مليون جنيه استرليني . وواضح من هذه الأرقام أن قرابة ٠٠٠ر١٣ شخص يعملون كل الوقت في قطاع بيع التبغ بالتجزئة وأنه لابد لهم من أن يبحثوا عن عمل آخر أو يستثمروا مدخراتهم فيما لو اختفت السجاير والتبغ من الوجود لسبب ما . أما الذين يشتغلون جزءا من الوقت فقد يستغنون عن أي عمل آخر أصالة أو قد يسهل عليهم العثور على عمل آخر يساعدهم ماليا .

وقد بلغ مجموع أجور هؤلاء العمال في سنة ١٩٥٧ ٨ر٢٧ مليون جنيه استرليني . ومن المحتمل أن يصل هذا المبلغ هذا العام إلى أكثر من ٣٣ مليون جنيه استرليني في حين أن أجور جميع العمال المشتغلين بالبيع بالتجزئة بلغت في سنة ١٩٥٧ ٧١٧ مليون جنيه استرليني أي أن أجور المشتغلين ببيع التبغ والسجاير ٤ في المائة من مجموع أجور المشتغلين ببيع جميع السلع بالتجزئة وأن نفقات تجارة التبغ جزء على هامش نفقات التجارات الأخرى ، وأن الأجور التي تنفق في هذا السبيل لا بد وأن تكون قليلة . وكان من الجائز ألا يتغير نظام استخدام العمال إلا قليلا لو أن بيع السجاير لم يكن ليقع عفوا . ولكن عدم بيع التبغ في محلات بيع الحلوى والصحف يجعل استمرار بيع التبغ في حالات كثيرة عسيراً إن لم يكن مستحيلا على الإطلاق ، وعلى هذا ينبغي أن تكون نسبة الأجور التي تصرف في تجارة التبغ أساسية .

ويمكن حسبان نفقات بيع الطباق بالتجزئة على اعتباره الكل في الكل بخمسين مليون جنيه استرليني تقريباً بما في ذلك نفقات توزيع السلع من

مواطن التصنيع على حوانيت البيع فيقبض هذا المبلغ ١٠٠٫٠٠٠ شخص ينتظر أن يعتزل ثلثهم العمل نهائياً وهم لا يبحثون عن عمل جديد فى حالة تحريم التدخين .

وخليق بنا أن نتناول هنا نظام المكافأة التشجيعية (البوناس) التى تتبعها شركات التبغ وخاصة شركة أمبريال توباكو والتى تهدف إلى ضمان عرض سلعهم على وجه رائع فى نوافذ الحوانيت ومحلات البيع بالتجزئة ولشركة أمبريال خطتان إحداهما إمداد أصحاب الحوانيت بواجهات خشبية جديدة لحوانيتهم على أن تعرض منتجاتها فى حيز يشغل ٧٥ فى المائة من مساحة الواجهة وأن يخصص مكان مركزى فى النوافذ الأخرى لنفس المنتجات ، والخطة الأخرى وهى الأكثر انتشاراً حققت لشركة أمبريال قسطاً كاملا من العرض بالنسبة لمركزها فى السوق.وكانت شركة جولاهر ترسم خططاً مشابهة على مدى أوسع أو أضيق عندما كانت تقوم المنافسة بين الشركتين فى قطاع ما ولكن الشركات الصغيرة كانت لا تقوى على منافستهما فى هذا الميدان وكانت تعتمد فى عرض منتجاتها على صلتها الحسنة بأصحاب الحوانيت . وقد تعهدت شركة أمبريال أن تصفى هذه الخطط بعد أكتوبر ١٩٦٢ .

وفى سنة ١٩٥٩ بلغ عدد المستفيدين من نظام المكافأة الذى تتبعه شركة أمبريال ١٠٠٫٠٠٠ شخص . ولهذا النظام صلة بنسبة الأرباح التى يحصل عليها حملة الأسهم من صافى البيع فى السوق المحلية وقد زاد هذا الصافى ٦٨٫ فى المائة دفعت للبائعين بالتجزئة والجملة على السواء وهى تمثل مكافأة لبائعى التجزئة قدرها ٥ فى المائة تقريباً (فى حين أنها بلغت ٢٢ فى المائة لبائعى الجملة الذين يحصلون فى الأحوال العادية على خصم يقل عن ٣ فى المائة) وهى مكافأة نافعة لأصحاب الحوانيت فى عيد الميلاد (إذ تتكدس

أدراج المحلات العامة بنقود قيمة الشيكات المصروفة فى ليلةالعيد) . وفى سنة ١٩٥٩ بلغ عدد المستفيدين الذين قبضوا أقل من خمسة جنيهات ٢٥٠٠٠ شخص وعدد الذين قبضوا مبالغ تتراوح بين خمسة جنيهات و ٢٥ جنيها ٦٠٫٠٠٠ شخص وعدد الذين قبضوا ألفاً أو أكثر من الجنيهات ٤٥٠ شخصاً فقط وهم الذين بلغت حركة بيعهم الحد الذى استحق هذه المكافأة .

إذن فأهمية صناعة التبغ فى كيان الدولة التجارى والصناعى أقل بكثير مما قد يتبادر للذهن عند وزن ماينفق على السجاير ، فقد ثبت أن نسبة المشتغلين بصناعة التبغ بصفة مباشرة إلى المشتغلين بإنتاج الصناعات الأخرى ١ : ٢٠٠ ، ولا يغير هذه النسبة إدخال صانعى الآلات التى تستعمل فى صناعة التبغ وصناعة القداحات والغلايين وملحقاتها وصنع الكبريت الذى يستعمله المدخنون (قرابة ٢٫٠٠٠ مليون علبة فى السنة) . أما من ناحية التوزيع فعامل واحد من كل عشرين من المشتغلين بالبيع بالتجزئة قد ينتقل إلى عمل آخر وقد لا يبحث كثيرون ضمن هذا العدد عن عمل جديد . وغاية مايقع من ضرر هو اختفاء عدة آلاف من الحوانيت الصغيرة وارتفاع نفقات الحوانيت التى توزع الصحف والحلوى وهبوط الدخل القومى خمسين إلى ستين مليوناً من الجنيهات وهو مايعادل ٢ فى المائة من الدخل القومى ، وكذلك لن يؤدى اختفاء صناعة التبغ إلى ظهور أية مشاكل كبرى حتى فى المناطق التى تعتمد كلية عليها بشرط ألا يقع هذا الاختفاء بين يوم وليلة .

ولعل الأهمية الجانبية فى الإنتاج والتوزيع لاتوازى الإعلان الذى طفر طفرة عالية فى سنة ١٩٥٥ ومن يومها وهو يستنزف من النفقات

نسبة أكبر مما كان عليه الحال فى أى وقت مضى، فقد أخذ المعلنون يتدبرون الخطط ويتخيرون الأساليب الجذابة التى تروق للجماهير بعد أن أعلن للناس تقرير جمعية الأطباء الملكية «التدخين والصحة» وليس من المنظور أن يهبط حجم النفقات الفعلية هبوطاً ملموساً رغم تأكيد ذلك مالم تتدخل الحكومة تدخلا مباشراً .

وقد تفاعلت صناعة التبغ مع ما ورد فى تقرير كلية الأطباء الذى تضمن أن هناك إسرافاً بالغاً فى نفقات الإعلان فخرجت برد طريف أثبت فى ملحق للتقرير — جاء فيه :

«كانت نفقات الإعلان عن التبغ فى الصحافة والتلفزيون فى المملكة المتحدة فى سنة ١٩٥٩ — ٢ر٥ فى المائة من مجموع نفقات بيع هذه السلعة بالتجزئة فى حين أن نفقات الإعلان فى الصحافة والتلفزيون فى المملكة المتحدة عن جميع سلع الانتفاع والسلع الاستهلاكية ٨٧ر فى المائة من نفقات بيع هذه السلع بالتجزئة وهكذا يمكن أن تزيد نفقات الإعلان فى الصحافة والتلفزيون على التبغ بمعدل الثلثين دون تجاوز نسبة نفقات الإعلان فى الصحافة والتلفزيون التى تتكبدها الجماهير فى الحصول على سلع الانتفاع والسلع الاستهلاكية . إن هذا القول الذى تقول به اللجنة الاستشارية للتبغ على ما يسوده من طنطنة وتكرار فيه إغفال لحقيقة خطيرة تنقض إصالة تلك الدعوى التى تحاول أن تقيمها وذلك لأنه نظراً إلى سرعة استيبانة موقف صناعة التبغ فى كل مناسبة أخرى يتضح أن ٩٠ فى المائة تقريباً من سعر السجاير تحدده ضريبة التبغ وهى نسبة أعلى بكثير مما تتحمله أى سلعة من سلع الانتفاع أو الاستهلاك، فالواقع أن المستوى العام للضرائب المفروضة على سلع الانتفاع والاستهلاك الأخرى

يقل عن ١٠ فى المائة . فلو أن صانع التبغ أنفق كل دخله الإجمالى على الإعلان لما استطاع رغم هذا تحقيق رقم يزيد على ١٥ فى المائة من مبيعاته ولهذا فالمقارنة الصحيحة بطبيعة الحال يجب أن تكون بين نفقات الإعلان وبين صافى الضريبة، وعلى هذا الأساس تكون أرقام صناعة التبغ ٢ر٢ فى المائة مقابل ١ فى المائة لمجموع السلع الأخرى وسلع الانتفاع وعلى هذا تكون صناعة التبغ قد أنفقت على الإعلان فى سنة ١٩٥٩ ضعف المتوسط، وزاد الفرق إلى أكثر من هذا فى سنة ١٩٦٠ وهى حقيقة راهنة لم تشر إليها اللجنة الاستشارية للتبغ .

وليس الإغراق فى الإعلان بطبيعة الحال دليلا على الخطيئة ولكن التستر على قيامه دليل الشعور بالإثم .

لقد زادت الأموال التى أنفقت فى الإعلان للتبغ فى السنين الأخيرة زيادة كبيرة كما يشير البيان رقم (٦) الذى يبين المبالغ التى أنفقت فى سبيل الإعلان فى الميدانين الأساسيين الصحافة والتلفزيون .

البيان رقم ٦ :

	جنيه استرلينى بالمليون			جنيه استرلينى بالمليون	
	صحافة	تلفزيون		صحافة	تلفزيون
١٩٥٤	١ر٣		١٩٥٧	٢ر٦	١ر١
١٩٥٥	١ر٧		١٩٥٨	٢ر٨	
١٩٥٦	٢ر٢		١٩٥٩	٢ر٧	٣ر٠
			١٩٦٠	٣ر٨	٤ر٥
			١٩٦١	٣ر٨	٥ر٣

ففى سنة ١٩٦٠ كان الإعلان للتبغ يمثل ٢ ./. من مجموع الإعلانات التى ظهرت فى الصحافة كلها بزيادة طفيفة عن السنين السابقة ولكن الزيادة فى التلفزيون سارت فى خطى أوسع ، فبينما كانت نفقات الإعلان فى التلفزيون نصف نفقات الإعلان فى الصحافة فى سنة ١٩٥٧ إذا بها تطفر فى سنة ١٩٥٩ فتصبح فى المقدمة بدرجة ملموسة ويستنفد الإعلان عن التبغ فى التلفزيون سنة ١٩٦٠ ٦ ./. من مجموع الإعلانات التى ظهرت فى التلفزيون وتستمر الزيادة على هذا القياس فى سنة ١٩٦١ ولكن هناك علامات تدل على حدوث تبدل فى الموقف من هذا التاريخ .

ولا يقتصر الإعلان عن صناعة التبغ على الصحافة والتلفزيون تكلف ٩ ملايين جنيه استرلينى فى سنة ١٩٦١ فهناك نفقات إقامة الإعلانات الكبيرة الثابتة فى الطرق العامة وأشكال أخرى من الإعلان خارج المدن ورغم منافسة التلفزيون لها فإنها ما زالت تستنفد مبالغ كبيرة من المال قدرها مجلس أبحاث الإعلان بمليونين ونصف مليون جنيه فى سنة ١٩٦٠ .

يضاف إلى ما سبق ما ينفق على العرض والزخرفة فى نوافذ المتاجر وهو ما ينبغى اعتباره بحق جزءاً من ميزانية ترويج الصناعة .

والمعتقد أن هذه النفقات تصل إلى معدل سنوى قدره مليونان ونصف مليون جنيه استرلينى فى السنة تقريباً .

وتعتبر كوبونات الهدايا نوعاً من وسائل الترويج أقل اتصالا مباشراً بالإعلان ولكنها لا تنفصل عنة إصالة . وهى ليست اليوم شكلا من أشكال النشاط المنتشر بل هى مقصورة على سجاير كنسيتاس واردات وإمباسى . وليس هناك فى الواقع متسع للاتجار بكوبونات السجاير عما

يقدم دليلا جديداً على ارتفاع مستوى الضرائب على التبغ فقـد قدرت فى سنة ١٩٥٧ القيمة النقدية لاستبدال الـكوبونات الموضوعة فى علبة فيها عشرون سيجارة ثمنها فى ذلك الوقت ثلاثة شلنات وعشرة بنسات بنسين ونصف بنس وذلك رغم أنه يحتمل أن صنع السجاير المعدة لتـكون هدية البون لا يزيد على بنس ونصف بنس وهو ما يقدر بـ ٥ ٪ من سعر البيع بالتجزئة وبربع الثمن الذى يبيع به المنتج بعد خصم الضريبة . وحتى مع التسليم بالواقع وهو أن نسـبة كبيرة من الـكوبونات الممنوحة لا تقدم للاستبدال فإن الترويج للسجاير بهذه الوسـيلة يكلف كثيراً فالاستبدال بمعدل ٢٠ ٪ يستنزف ٥ فى المائة من مكسب الصانع ولذلك فالترويج بهذه الوسيلة يصبح أكثر نفقة من أى وسيلة من وسائل الإعلان . هذا ما لم تؤد هذه الوسيلة إلى جذب عدد من المستهلـكين الجدد بمعدل كبير جداً غير مألوف ، وتقدر نفقات هذه الوسيلة بمليون جنيه استرلينى على الأكثر فى السنة .

وإذن فخلاصة القول أن صانعى التبغ ينفقون فى السنة على الاعلان وما إليه من وسائل الترويج بمعدل ١٤ — ١٥ مليون جنيهاسترلينى ، ثلاثة أرباع هذا المبلغ فى الصحافة والتلفزيون والإعلانات الثابتة التى تقام على الطرق العمومية وهو ما يعادل ٤ فى المائة من مجموع النفقات التى يبذلها سائر المعلنين الآخرين فى هذه الميادين . وواضح أن أى خطر على إعلانات التبغ قد يؤدى إلى إعادة النظر فى أثمـان الإعلانات مما يتعب طرفى الإعلان وخاصة التلفزيون إذ إن إقصاء جزء كبير من تجارة قائمة قد يعكس ضمن ما يعكس ارتفاعاً فى أسـعار الإعلان يتحمله المعلنون الآخرون . ويمـكن القول فى هذه الحالة بأن معلنى التبغ يصبحون سبباً

فى هبوط درجة استعمال المعلنين الآخرين للإعلان هبوطاً محسوساً غير أن توقف الإعلان عن التبغ لن يؤدى إلى زيادة أثمان الصحف والمجلات بصفة عامة .

ونصيب الحكومة من الإعلان فيما يختص بالتبغ ضئيل جداً فقد بلغ ما بذلته الحكومة فى هذا السبيل لتبصير الشعب بأخطار التدخين ٢٥٠٠ جنيه استرلينى ولكن هذا المبلغ الصغير هو كل ما أمكن اكتشافه فى معرض صلة الحكومة بالتبغ . فنى السنة المالية ١٩٦٠ — ١٩٦١ بلغت ضريبة التبغ أكثر من ٨٢٥ مليون جنيه استرلينى وهو ما يعادل خمس جميع الأموال التى دخلت خزينة الحكومة من الضرائب المباشرة وغير المباشرة . ولقد أصبح من العسير تقدير دخل الحكومة من ضرائب التبغ بعد التعقيد الذى طرأ على الموقف بعد زيادة ضرائب التبغ ١٠ فى المائة ونشر التقارير الأخيرة عن صلة سرطان الرئة بالتدخين على أنه ليس من المستغرب أن يصل دخل الحكومة من ضرائب التبغ فى السنة المالية ١٩٦٢ — ١٩٦٣ إلى أكثر من ٩٠٠ مليون جنيه استرلينى وهو يمثل مجموع ما تنفقه الحكومة المركزية على الطرق والصحة والتعليم .

إن اعتماد الحكومة على دخلها من ضريبة التبغ هو واقع اقتصادى مركزى فيما يخص هذه السلعة . فنى سنة ١٩٠٠ كانت الضريبة على الرطل ثلاثة شلنات وكان الدخل بصعوبة ١٠ مليون جنيه استرلينى، ومع مرور الزمن أصبحت الضريبة فى سنة ١٩٣٠ ثمانية شلنات وعشرة بنسات والدخل من هذه الضريبة ٦٣ مليون جنيه . وفى أمسية اندلاع حرب سنة ١٩٣٩ رفعت الضريبة إلى أحد عشر شلناً وستة بنسات وارتفع الدخل إلى أكثر من ٨٢ مليون جنيه على أن الدخل من ضريبة التبغ

لم يكن فى يوم من أيام هذه الفترة ذا حجم يقارن بالدخل العام كما هو الحال اليوم فقد كان الدخل من ضريبة التبغ قبل الحرب يقدر بـ ٨ فى المائة من مجموع الدخل فأصبح اليوم ثلاثة أضعاف هذه النسبة تقريباً .

ولكن الضريبة على التبغ نفسه وهى لا تميز بين أوجه استعماله المختلفة التى يستخدم فيها التبغ الخام لا تستنفد قائمة الجبايات التى تفرضها الحكومة الشاكرة على المدخن الراضى .

ففضلا عن المبلغ الذى يدخل فى نطاق المعقول ولكنه لا يدخل فى نطاق التحديد والذى يجبى سنوياً من ضريبة شراء لوازم المدخن وملحقات التدخين تجبى أيضاً ضريبة خاصة مفروضة على الولاعات الآلية وصلت فى السنة المالية ١٩٦٠ — ١٩٦١ إلى ٨٦٨٠٠٠ جنيه استرلينى قوامها ١٨٧٠٠٠ جنيه ضريبة جمرك على ٥٣٧٠٠٠ ولاعة مستوردة من الخارج و ٦٨١٠٠٠ ضريبة إنتاج ستذهل معظم المدخنين إذا علموا أنها تجبى عن ٥ر٢ مليون ولاعة تصنع محلياً .

إن نسبة جوهرية من ضريبة الكبريت وقدرها ١٢ر٦٨ مليون جنيه جبيت فى نفس السنة ويرجع الفضل فيها بحق إلى المدخن النشط هذا بخلاف ما يجبى من تراخيص صناعة التبغ أو تجارته فصناع التبغ يؤدون ضريبة تجبى على حسب كمية التبغ التى تدخل فى التصنيع . ويعفى المبتدئ فى أول سنة من دفع خمسة جنيهات ولكنه يجبر على دفع ضريبة إضافية إذا بلغ ما يستهلكه أكثر من ٢٠٠٠٠ رطل من التبغ كما يدفع الصانع الذى يستهلك أكثر من ١٠٠٠٠٠ رطل ٢١ر٥ جنيه تذيل به قائمة ما دفعه من الضرائب التصاعدية حسب نظام مقرر على ألا يزيد عدد الرخص

على تسعين ، ولذا فهذا المصدر بالذات لا يعزز إلى حد كبير الدخل الضريبى .

كذلك يجب على تجار التبغ استخراج تراخيص بلغت فى الوقت الحاضر ٠٠٠ر٤٣٠ وبلغ الدخل منها فى السنة المالية ١٩٦٠ - ٦١ - ٠٠٠ر١٨٠ جنيه، ولكن هذا المصدر قد يضعف مستقبلا لتعديل قد استحدث فى نظام الترخيص فقد كان الترخيص يكلف حامله مبلغاً عجيباً هو خمسة شلنات وثلاثة بنسات سنوياً (وقد يكلفه فى بعض حالات عرضية أربعة بنسات فى اليوم) أما اليوم فالترخيص يكلف جنيهاً لمدة ثلاث سنوات تنتهى فى ٣١ ديسمبر من السنة التى تعقب تاريخ صدور الترخيص .

وكل هذه الضرائب والرسوم تتضاءل بطبيعة الحال بجانب ضخامة ما يجبى على ورق التبغ نفسه وهو يقدر بـ ١ فى المائة يضاف إلى الدخل الضرائبى الهائل ويبذل صناع التبغ قصارى جهدهم حتى لا يدفعوا أقل من ٧١ شلناً عن الرطل وهو المعدل الباهظ الذى يفرض على رطل التبغ الذى يحتوى ١٠ فى المائة من رطوبة الماء . فإذا حدث أن وصل التبغ إلى بريطانيا من موطن إنتاجه وهو أكثر رطوبة مما ذكر أحس المستورد بالغبطة وهو يدفع ضريبة بمعدل يزيد ٣٥ جنيهاً على كل جالون ماء . غير أنه إذا وجد فى أى جزء من الرسالة تبغ يحتوى على أقل من ١٠ فى المائة يعاد حساب الضريبة بمعدل أعلى من المقرر . ولتفادى هذه المغامرة يسمح المصدرون للتبغ بوجود رطوبة فيه أكثر من ١٠ فى المائة. ومعنى هذا أن جمارك صاحبة الجلالة البريطانية تجبى بالفعل ملايين من الجنيهات سنوياً عن ماء يستورد من الولايات المتحدة واليونان وتركيا والهند وكندا وروديسيا وغيرها ولو أنها تسمح لدول الكومنولث بمعدل أفضل .

وواضح أن للحكومة أكبر مصلحة فى استمرار بقاء صناعة التبغ . وليس من السهل إطلاقا تبين الطريق إلى خلق مصادر أخرى تعوض دخل ٥ر٢ مليون جنيهاً يومياً . ولما كان قرابة ٦٠ فى المائة من الكبار يدخنون بل ونسبة المدخنين بين عمال صناعة أعلى من هذه فالحل التجريبى الذى يجوز قبوله فيما لو تغير الموقف هو جباية هذا العجز من ضريبة تفرض على المرتبات .

وينوب عن هذا الإجراء أو يضاف إليه أن تعدل ضريبة الشراء الراهنة وتجعل من فئة واحدة تسرى على معظم السلع والخدمات حتى يصبح الدخل منها أكثر من ضريبة الشراء الراهنة .

ومهما تكن الصعوبات فواضح تماماً أن الدخل من ضريبة التبغ التى قد يستغنى عنها فيما لو حرم التدخين أو اندثر يمكن بشىء من التفكير تعويضه . فمن المحقق أنه بينما ينبغى أن لا يكون حجم الدخل هو الحافز للعقل فى تدبير المال اللازم للخدمات المدنية فليس هناك سبب يحتم اللجوء للتبغ لتدبير شئون الدولة دون البحث وراء مصادر أخرى يضاف إلى هذا كما سيستبين فيما يلى أنه ينتظر بحق ظهور ادخارات اجتماعية كبيرة بعد اندثار التدخين . وهذه الادخارات تقف فى مستوى الدخل الموجود وتؤثر فى خفض المبالغ الذى يبحث عنه ليحل محل الدخل القائم .

وهنا يحسن أولا التأمل فى أهمية تجارة التبغ لبريطانيا بالنسبة لاقتصاد الدول الأخرى بغض النظر عن موازنة الدفع من جانب بريطانيا .

كان التدخين فى منتصف القرن الماضى مقتصراً على الغليون والسيجار وقد أجمع الرأى على أن تدخين السجاير قد دخل انجلترا بعد حرب القرم وكان التبغ المستعمل فى صنع السجاير الإنجليزية حتى نهاية القرن التاسع

عشر فى أول الأمر من الأنواع الشرقية المستوردة من تركيا ودول البلقان غير أن تدخين السجاير انتشر فى مجالات أوسع فى مستهل القرن الحالى فعمد صناع السجاير إلى تشجيع التدخين وذلك باستعمال طباق أخف نكهة مما تنتجه فرجينيا وغيرها من الولايات المتحدة الأمريكية الجنوبية، ويتهكم البعض فيقولون إن السبب الحقيقى فى التحول إلى طباق فرجينيا هو أنه أكثر تشجيعاً على إدمان التدخين ، ولكن التعليل البسيط والأقرب إلى المعقول هو أن التبغ الخفيف النكهة يصادف رضى المستهلك ويجد سوقاً رائجة وخاصة بين النساء .

وقد أدى نهوض السجاير إلى تحول جذرى فى الموارد البريطانية من أمريكا التى لها التفوق فى هذا الميدان حتى اتجهت المحاولات إلى إنتاج التبغ فى المستعمرات وخاصة روديسيا وذلك فى الفترة بين الحربين العالميتين وهى سياسة صادفت دفعاً وتشجيعاً مع تقدم المبدأ القائل بتفضيل المستعمرات .

ومن السخرية أن تفضيل بريطانيا لتبغ فرجينيا قد كلفها بعد الحرب مباشرة الشيء الكثير عندما اضطرت لتخصيص ملايين الدولارات الصعبة لشراء التبغ الأمريكى لسد حاجة التدخين . فلو أن المستهلك الإنجليزى أوتى ذوقاً غير ذوقه إذن لخفت إلى حد ملموس مشاكل الدولة فى أعقاب الحرب .

ولقد كان تبغ الكومنولث بطيئاً فى شيوعه بين الجماهير رغم إيثاره عند فرض الضريبة فى ١٩١٩ إذ جعلت خمسة أسداس الضريبة الكاملة ثم جعلت فى الفترة بين ١٩٢٥ و ١٩٢٧ ثلاثة أرباع الضريبة الكاملة أى أنه أوثر ب ٢٥ فى المائة من الضريبة ثم رؤى أن تكون القيمة الإيثارية ثابتة

وذلك بتحديدها بمبلغ ٢ شلن و نصف بنس عن الرطل الواحد وهذا بالطبع قد دهور نسبة الإيثار المئوية فقد ارتفع سعر الضريبة على التعاقب. وفى غضون الحرب هبطت القيمة الإيثارية إلى شلن و ٥و٦ بنس استمرت هكذا إلى الآن ، غير أن رفع الضريبة منذ ١٩٣٩ من ١١ شلنا و٦ بنسات إلى ما يقرب من ٧١ شلنا جعل النسبة المئوية للإيثار تهبط من ٢١٫٥ فى المائة إلى ما لا يزيد على ٢٫٥ فى المائة ومع ذلك فالنسبة مثلا من تبغ الكومنولث المستهلكة فى الصناعة البريطانية دأبت على الصعود حتى أصبحت نصف مجموع الكمية المستهلكة بينما كان لتبغ الولايات المتحدة قبل الحرب الأولوية والشيوع . فإذا فرض أن بريطانيا توقفت عن شراء التبغ من الخارج فإن ذلك لا يؤدى إلى تحسن ميزان مدفوعاتها تحسنا ملموسا فالتوقف يوفر لها ١٠٠ مليون جنيه سنويا قيمة الواردات منه ولكن هذا يعنى فى الوقت نفسه توقف صادراتها من السجاير وقيمتها ٢٠ مليون جنيه أى أن فى الفترة التى تستغرق فى المتوسط شهرين بين الاستيراد والتصدير يصح ترقب توفير ٨٠ مليون جنيه وهو ما يقابل بالترحاب إلا أنه لا يكون عاملا قويا فى المعاونة على إعادة بناء الاقتدار الاقتصادى للدولة .

وقد بلغت واردات بريطانيا من التبغ «الأخضر» (١٠ فى المائة رطوبة) فى السنين الأخيرة قرابة ٣٠٠ مليون رطل سنويا أى ما يقرب من ٢٧٠ مليون رطل من التبغ الجاف . ولما كان استهلاك العالم ١١٠٠ مليون رطل فإن تجارة بريطانيا من هذه السلعة ٣٠ فى المائة تقريبا .

وقد بلغ محصول التبغ فى العالم كله ما يقرب من ٦٠٠٠ مليون رطل تنتج الصين سدسه بينما تنتج الولايات المتحدة ٣٠ فى المائة من هذا المحصول

فى رقعـــة أرض مساحتها سدس المساحة المنزرعة فى الصين وهذا يعكس صورة للمحصول الكبير الذى يحققه الزراع الأمريكيون ، وتبلغ المساحة المنزرعة فى الكومنولث ثلث المساحة المنزرعة فى العالم وتنتج خمس محصول العالم ومعظمه من الهند والباكستان ولو أن الإنتاج فيهما ضعيف . وتبلغ المساحة المنزرعة تبغا فى روديسيا ونياسلاند خمس مجموع المساحة المنزرعة تبغا فى الكومنولث ، مقسمة بالتساوى بين روديسيا الجنوبية من جانب وروديسيا الشمالية ونياسلاند من الجانب الآخر. غير أن الإنتاج فى هاتين المنطقتين يختلف إلى حد كبير فالإنتاج فى روديسيا الجنوبية يصل إلى ١٥٠ مليون رطل وهو ضعف ما ينتجه باقى الاتحاد .

وقد بذلت محاولات فى أول العهد بتبغ الكومنولث لجعله أثيرا عند الجماهير ذهبت إلى مدى بعيد ولكنها كانت كالسهام الطائشة ، وقد ذكرت اللجنة الاقتصادية الإمبراطورية فى تقريرها عن هذه السلعة فى سنة ١٩٣٧ تعليقا مقتضبا قالت فيه « إن بعض الصانعين للتبغ قد لفت نظر الجماهير فى إلحاف شديد فوصفوا سجاير «إمباير» بأنها تحتوى على مخاليط — إلى آخر ما جاء فى الوصف وأهم مزاياها رخص ثمنها — وهى سياسة مشكوك فى سدادها .

ومع هذا فمن الإنصاف أن نقول إن تبغ الكومنولث احتفظ بسمعته على ما اعتورها من غموض ففى الفترة ١٩٥١ — ١٩٦١ أدخل تغيير مهم فى تركيب تبغ الكومنولث تمسك به صانعوه فى هـــذه البلاد . وقد بلغ مجموع واردات التبغ ٢٩٠ مليونا من الأرطال وكان تبغ الكومنولث ٣٦ فى المائة من هـــذه الواردات يقابل هذا أن الواردات فى سنة ١٩٦١ ارتفعت إلى ٣١٨ مليونا من الأرطال أى بلغ الارتفاع ١٠ فى المائة تقريبا

وانخفضت واردات التبغ الغريب عن الكومنولث بنسبة ١٠ فى المائة ولهذا زاد محصول تبغ الكومنولت بنسبة ٤٥ فى المائة، وهذا يعلل ارتفاع الواردات من الأنواع المختلفة بنسبة ٤٨ فى المائة. وكان التبدل فى الواردات أكثر وضوحا إذ هبطت الواردات من الأنواع الأجنبية بنسبة ٢ فى المائة تقريبا بينما ارتفعت واردات تبغ الكومنولت إلى أكثر من ١٣٥ مليونا من الأرطال أى بنسبة ٥٠ فى المائة تقريبا وأصبحت تشكل ٥٢ فى المائة من مجموع الواردات وقدرها ٢٦٠ مليونا من الأرطال ويبين الجدول ٧ الوضع الراهن للواردات على وجه التقريب .

جدول رقم ٧

روديسيا ، نياسلاند	٧٥	
كندا	٢٠	
الهند	٤٥	
	—	١٤٠
الولايات المتحدة	١٦٠	
تركيا	٢	
اليونان	١	
	١٦٣	٣٠٣

وتختلف أهمية بريطانيا كعميل تجارى للتبغ اختلافا كبيرا تبعا للقطر الذى تتعامل معه ويوضح الجدول رقم ٨ حركة التعامل مع كل قطر من الأقطار المنتجة للتبغ وقيمة هـــذه الواردات لبريطانيا ونسبة دخلها من تجارة التبغ .

جدول رقم ٨

	التبــــغ		قيمة الصادرات بالمليون جنيه	الصادرات ونسبتها المئوية إلى جميع السلع
	الإنتاج بالمليون رطل	الصادرات بالمليون رطل		
روديسيا ونياسلاند	٢٠٠	١٥٠	٢٨	٢٠ر
كندا	٢٠٠	٣٠	٦	٤ر
الهند	٥٣٠	١٠٠	١٧	٣ر
لولايات المتحدة	١٧٥٠	٥٠٠	١٢٠	٢ر
تركيا	٢٣٠	١٩٠	٣٦	٣٤ر
اليونان	١٩٠	١٤٠	٢٧	٣٦ر

وعلى هذا فبريطانيا تشترى نصف إنتاج روديسيا تقريباً من التبغ وهو يشكل ١٠ فى المائة من إجمالى دخل هذه الولاية وهو أكبر مايقع على كاهل بريطانيا فى حين أنه على الرغم من شرائها ثلثى صادرات كندا فإن هذا يمثل بصعوبة ٢٥ر فى المائة من دخلها كذلك نجد أنه على الرغم من شراء بريطانيا لنصف صادرات الهند من التبغ فإن هذا لا يمثل إلا قرابة ١ ونصف فى المائة من مجموع دخل الهند من تجارتها الخارجية ، وعلى نفس القياس نجد أن بريطانيا تحصل على ثلث صادرات الولايات المتحدة من التبغ وهذا لا يمثل إلا ١ فى المائة من مجموع دخلها من صادراتها .

فإذا فرض أن بريطانيا تتوقف عن شراء التبغ من الخارج فان هذا لايؤدى إلى تحسن ميزان مدفوعاتها تحسناً ملموساً فالتوقف يوفر لها ١٠٠ مليون من الجنيهات سنوياً هى قيمة وارداتها من التبغ ولكن هذا يعنى فى الوقت نفسه توقف صادراتها من السجاير وقيمتها ٢٠ مليوناً من الجنيهات أى أن فى فترة شهرين فى المتوسط بين الاستيراد والتصدير يرتقب

توفير ٨٠ مليوناً من الجنيهات وهو مايقابل بالترحاب ولكن هذا لايكون عاملا قوياً فى المعاونة على إعادة بناء الاقتدار الاقتصادى للدولة .

ومن ناحية أخرى فإن توقف بريطانيا عن شراء التبغ يعود على روديسيا بعواقب مشئومة خطيرة ولابد معها من اتخاذ إجراءات خاصة تدفع الضير وتحيله إلى خير وتعوض موقف المدفوعات التى أشرنا إليها فيما سبق . وبخلاف هذا فسيكون هناك أثر ضئيل جداً على المجالات الاقتصادية الوطنية الأخرى غير أنه يمكن للأفراد من المنتجين الذين تربطهم بالمشترين البريطانيين روابط قوية أن يناضلوا فى سبيل تذليل الصعوبات التى تعترضهم .

وفى الحق أن انسحاب بريطانيا من صفوف الأمم المتحدة التى تدخن قد يؤدى إلى هبوط أسعار التبغ فى العالم بنسبة ٣٠ فى المائة وإلى نقص استهلاك العالم منه بنسبة ٦ فى المائة وهذا يؤدى بالتالى إلى هبوط واضح فى الأسعار وخاصة أن معظم دول العالم تجبى ضرائب فادحة على التبغ وعندئذ فلابد أن تهبط أوراق التبغ قبل أن يهبط مستوى أسعار البيع بالتجزئة للدرجة التى يمكن معها إنعاش الطلب عليه إلى الحد المرغوب .

ومع كل هذا وفضلا عن حالة روديسيا الخاصة فإن مساهمة بريطانيا فى الاقتصاد العالمى المترتب على عادات التدخين فى البلاد ليست ذات شأن كبير إذ هى لا يعدو ظهور آثار ثانوية محلية .

فإذا كانت النتائج الاقتصادية المترتبة على النيكوتين فى بريطانيا وفى العالم الخارجى غير بالغة ولن تتأثر إلا مصالح أصحاب الحوانيت الصغيرة والمشتغلين بالتلفزيون وروديسيا الجنوبية فى حالة تحريم التدخين ، فإنه ينبغى إمعان النظر

فى النتائج المضادة التى سبق أن أوضحناها للوصول إلى تقرير موازنة صحيحة .

ولعل الحرائق التى يسببها المدخنون مثل صغير نسبياً على ما يكلفه التدخين اجتماعياً . ولا يستلزم الأمر بطبيعة الحال تحريم التدخين لتفادى الخسائر التى تقع على هذا الوجه ، فالواقع الملموس أن التدخين يتسبب فى اندلاع آلاف الحرائق سنوياً تكلف خسائر وإصابات يمكن بحق وضعها فى الحساب المدين .

ففى الفترة بين ١٩٥٦ و١٩٥٨ تراوح عدد الحرائق داخل المساكن فى حدود ضيقة جداً حول الرقم ٥١٠٠٠ بينما ارتفع عدد الحرائق التى نشأت بسبب التدخين إلى ٤٤٤٠ فى سنة ١٩٥٦ ، ٤٩٧١ فى ١٩٥٧ ، ٥٢٦٤ فى سنة ١٨٥٨ أى بزيادة ٢٠ فى المائة .

وزاد عدد الحرائق فى سنة ١٩٥٩ زيادة فاحشة إذ طفر إلى ٦١٣٢٨ وزاد عدد الحرائق بسبب التدخين بنسبة أكثر فحشاً إذ بلغ ٦٩٤٠ وفى سنة ١٩٦٠ كانت الزيادة فى مجموع الحرائق ١٠٠٠ تقريبـاً بينما الزيادة فى حرائق التدخين بلغت ضعف هذا العدد . ومن ثم فإنه بينما كانت نسبة عدد الحرائق الناشئة عن التدخين فى سنة ١٩٥٦ إلى عدد الحرائق داخل المبانى ١ : ١٢ نجد أنها فى سنة ١٩٦٠ طفرت إلى أكثر من ١ : ٩

واتجهت النسبة بين عدد حرائق التدخين وبين عدد الحرائق التى شبت فى العراء نفس الاتجاه ففى سنة ١٩٥٦ بلغ عدد الحرائق الناشئة عن التدخين ٦٥٠٨ من مجموع الحرائق وقدره ٧١٧٠٤ ، وقد هبط هذا المجموع فى السنتين التاليتين بينما لم يهبط عدد حرائق التدخين إلا فى سنة ١٩٥٨ ، غير

أن سنة ١٩٥٩ كانت فريدة فى عدد حرائقها فمع شواظ أواخر صيف تلك السنة تضاعف عدد حرائق العراء أربع مرات فبلغ ١٧٦٠٠٠ ، وساهم المدخنون فى وقوع هذه الزيادة فتضاعفت حرائقهم أكثر من ست مرات فبلغ عددها أكثر من ٢٨٠٠٠ . وفى سنة ١٩٦٠ ثابت حرائق العراء إلى رشدها وهبطت إلى ٧١٠٠٠ أى إلى مستوى ١٩٥٦ .

ومع هذا فقد بلغ عدد حرائق المدخنين ٩٣٠٠ أى بنسبة ١٣ فى المائة فى حين أن هذه النسبة كانت ٩ فى المائة لأربع سنوات خلت .

وقد أثيرت عدة شكاوى فحواها أن حرائق الغابات قد نشأت عن إهمال المدخنين غير أنه لم يقم الدليل على صلتها المباشرة بتلك الإعلانات الشاعرية التى يظهر فيها العاشقان وهما يتبادلان إشعال سجايرهما .

فإذا كانت نسبة الحرائق التى يسببها التدخين إلى مجموع الحرائق كنسبة ١ : ٨ ، وإذا قدرت أضرار مجموع الحرائق بثمانين مليوناً من الجنيهات تقريباً فتبعة الضرر ، وقدره عشرة ملايين من الجنيهات تقع على عاتق المدخنين .

وقد دل الإحصاء أن مليون عامل من عمال بريطانيا ينقطعون عن العمل فى كل يوم من أيام العمل بسبب المرض أى يضيع سنوياً ٢٠٠ مليون يوم بلا عمل تتضاءل بجانبها ٣ — ٨ مليون يوم ضاعت بلا عمل فى الاضطرابات فى السنين الأخيرة أثار ضياعها كثيراً من السخط . ويمكن تحويل هذه الضائعة إلى طاقة صناعية تهدف إلى الإقلال من الخسائر الصناعية التى تنشأ عن عادة التدخين ، ففى غضون السنة الواحدة يضيع ٢٧ مليون يوم بسبب الإصابة بالتهاب الشعب وهو ما يعادل ثمن مجموع الأيام وخمسة

أضعاف الأيام التى تضيع فى الاضطرابات . ومع التسليم جدلا بأن مناخ بريطانيا يشجع على ظهور التهاب الشعب بدون أن يكون للتدخين دخل فى ذلك فإن مما لا شك فيه أن تدخين السجاير يزيد الحالة سوءاً حتى ولو لعب التدخين دوراً ضئيلا كسبب، فإذا استبان أن ٢٠ فى المائة من وقت الصناعة الضائع ينشأ عن التهاب الشعب الذى يسببه التدخين كان الضرر المترتب على التدخين وحده يعادل الضرر الاقتصادى الذى ينشأ عن جميع الاضرابات التى تقع فى السنة الواحدة على أن هذه النسبة التى ذكرناها لا تطابق الواقع فقد ورد فى تقرير الكلية الطبية الملكية نتائج ثلاث بحوث فحواها أن أكثر من ٣٠ فى المائة من المدخنين يلازمهم سعال شعبى مستمر مقابل ٨ فى المائة من غير المدخنين .

ولا يمكن تقدير الخسارة الناشئة عن الأمراض الأخرى التى يسببها التدخين أو تتفاقم بالتدخين، ولكن إذا أخذنا التهاب الشعب أساساً وجدنا أن خمسة ملايين من الأيام تضيع بلا إنتاج وأن الخسارة تقدر بغرامة ١٥ مليوناً من الجنيهات .

وهناك عدا هذا تكاليف اجتماعية هامة وهى عجز عدد كبير من العمال عن الإنتاج بسبب إصابة أكثرهم بالأمراض التى يكون فيها التدخين سبباً أصلياً أو سبباً مساعداً . فمن سجل العاجزين عن العمل تستبين أنه يوجد ٦٥٠٠٠٠ فرد ١٠ فى المائة منهم أقعدهم التهاب الشعب والأمراض الرئوية الأخرى، وهنا لا يمكن تحديد الخسارة أيضاً إلا أنه لا يمكن إنكارها أو تجاهل ذلك العبء الثقيل الملقى على عاتق المهنة الطبية والمستشفيات فى رعاية أولئك العاجزين بسبب التدخين. هذا فضلا عن الأموال العامة التى تنفق ثمناً للدواء اللازم

لهم وفى استشارة الإخصائيين وفى أجور الموظفين وغيرهم ممن يدخلون فى نطاق الرعاية الطبية .

وأخيراً نجد أنفسنا حيال أكبر المسائل جميعاً وهى خسارة المجتمع الناشئة عن الموت الباكر الذى يداهم عدداً كبيراً من المدخنين، فمن المقرر دون الحاجة إلى افتراض الأسباب لهذه النتيجة أن المدخنين فى أى عمر بعد الخامسة والعشرين يعيشون عمراً أقصر مما يعيشه غير المدخنين . ولا تصبح هذه الفوارق ملموسة إلا بعد الخامسة والثلاثين، إلا أنها وثيقة الصلة بمبالغ التدخين .

فإذا وضع موضع الاعتبار أن المدخنين من الذكور أكبر عدداً من الإناث بنسبة ٣ : ٢ وأن متوسط ما يدخنه الرجل فى اليوم تسع عشرة سيجارة وما تدخنه المرأة عشر سجاير ،كان معدل التدخين اليومى ست عشرة سيجارة . وقد حسب معدل الوفيات بين المدخنين وغير المدخنين على أساس البحث الذى قام به الأطباء البريطانيون فوجدأن استهلاك الفرد ١٥ — ٢٤ سيجارة يومياً ، هو المقدار الذى يقرر مصير المدخنين بصفة عامة .

ويستقرأ من الجداول أن من بين كل ١٠٠٠ رجل لا يدخنون ويصلون إلى الخامسة والثلاثين من أعمارهم يموت أحد عشر قبل أن يصلوا إلى الرابعة والأربعين ، بينما أن ستة عشر يموتون من بين المدخنين أى بزيادة نصف فى المائة من معدل الوفيات فى السنة بين كل ١٠٠٠ مدخن فى هذا السن. ويزداد التفاوت على مر السنين فى مصلحة الذين لا يدخنون. ويبين الجدول رقم ٩ عدد الذين ينتظر بقاؤهم أحياء فى أعمار مختلفة بين كل ١٠٠٠ شخص من المدخنين و١٠٠٠ شخص ممن لا يدخنون .

جدول رقم ٩

	الباقون أحيـــاء		الزيادة فى الوفيات
	غير مدخنين	مدخنون	
٣٥ – ٤٤	٩٨٩	٩٨٤	٥
٤٥ – ٥٤	٩٥٢	٩١٤	٣٣
٥٥ – ٦٤	٨٣٨	٧٢٩	٧١
٦٥ – ٧٤	٥٧٤	٤٢٣	٤٢

أى أن ٨٤ فى المائة ممن لا يدخنون ، ويبلغ عمر الواحد منهم ٣٥ سنة يتوقعون البقاء أحياء إلى سن الخامسة والستين وهو السن الطبيعى لتقاعد الرجال فى حين أن ٧٣ فى المائة فقط من المدخنين يصلون إلى هذا السن .

ومن ثم فإنه يمكن على وجه التقريب حسبان فروق ترقب البقاء فمن بين كل ١٠٠٠ مدخن سيموت خمسة خلال عشر سنوات أكثر مما هو الحال بين الذين لا يدخنون وسيفقد كل واحد ٢٥ سنة منتجة فى المتوسط وفى الطبقة التالية يفقد كل من الثلاثة والثلاثين الذين يموتون قبل الأوان بالقياس إلى أولئك الذين لا يدخنون ١٥ سنة منتجة . وفى المجموعة من ٥٥ — ٦٤ سيفقد كل واحد فى المتوسط خمس سنوات . ويكون المجموع هو ٩٧٥ سنة من أعمار الرجال بين كل ١٠٠٠ مدخن ، وبتطبيق هذا على تعداد ٢١ مليونا من المدخنين يظهر أنهم يفقدون وهم يعيشون بين سن ٣٥ وسن الخامسة والستين ٢٠٫٨٧٥٫٠٠٠ أى على وجه الدقة

قرابة سنة لكل مدخن كما يترقب ٢ر٢ مليون منهم أن يواجهوا الحقيقة وهى أن تسع سنوات ونصف سنة ستقصف من عمر كل واحد منهم وأنهم سيلاقون حتفهم قبل أن يستوفوا عمرهم الطبيعى .

فلو وزعت الوفيات بالتساوى على فترة ثلاثين سنة — وهو شىء لا يحدث عملياً ، إذ إن معدل الوفاة بين المدخنين يرتفع بنسبة أكبر مع العمر — إذن لزادت الوفيات كل سنة بمعدل يزيد قليلا على ٠٠٠ر٧٠ والواقع أنه لما كان عدد المدخنين موزعا على فئات الأعمار المختلفة فالفقد من السنين البشرية هو انعكاس لوفيات وقعت قبل أوانها بسنين كثيرة وكذلك للوفيات التى تقع فى السنة الراهنة وهكذا تفقد ما يوازى قرابة ٠٠٠ر٧٠٠ سنة بشرية : من ٧٠٠٠٠ وفاة سنويا تكلف الواحدة تسع سنوات ونصف سنة أو بعبارة أخرى $\frac{1}{30}$ من ٢١ مليون سنة بشرية كل عام .

وتقدر السنة البشرية فى المتوسط على أساس معدل إنتاج العامل سنوياً بـ ١٢٠٠ جنيه استرلينى ومن ثم فالخسارة الإجمالية السنوية الناشئة عن إنهاك المجموع بزيادة وفيات المدخنين تقدر بـ ٨٠٠ مليون من الجنيهات وهو مايعادل ٣ فى المائة من الدخل القومى وهو رقم مفزع وأول مايطالعنا لمقارنته بدخل الحكومة من التبغ .

ولا يمكن بالطبع أن يقتصد هذا المبلغ كل سنة بمجرد إقلاع كل فرد عن التدخين حتى مع افتراض توقف الزيادة فى الوفيات على الفور وعدم قيام ما يثبت أن للوفاة أسباباً أخرى غير معروفة ، فصافى الأرباح سيكون أقل بكثير . فالجماهير التى ستعيش أكثر ستستهلك بطبيعة الحال كما أنها ستنتج وستحتاج إلى الاستيراد كما ستحتاج إلى التصدير . ولكن فى كثير

من القطاعات الصناعية التي قد أزمن افتقارها إلى اليد العاملة رغم توافرها في فترات متراوحة، يحتمل أن تؤدي إلى ٧٠٠٫٠٠٠ سنة بشرية — المنتظر توافرها كل عام — إلى مزيد من الإنتاج يقدر بـ ٤٨٠ مليوناً من الجنيهات قد يصدر ثلثه في حين أنه لو ضغطت الواردات الكمالية إلى ٢٠٠ مليون من الجنيهات فسيكون هناك فائض يقدر بثمانين مليوناً من الجنيهات تكون دعامة لموازنة المدفوعات .

وفي الوقت نفسه سيترتب على طول الأعمار ازدياد التبادل وتناقص ثقل الطالب على الخدمات الطبية . أما نسبة التبادل إلى حجم الـ ٧٠٠٫٠٠٠ سنة بشرية فسيكون أكثر من نسبته إلى عدد السكان ، لأن نسبة مئوية عالية من السكان ستكسب دخولا وستنفق من هذه الدخول . ومن المحتمل أن تنهض التجارة القومية بالتجزئة إلى أكثر من ٥٠٠ مليون من الجنيهات أي ٣ في المائة تقريباً بينما يصبح الوفر في العلاج بالمستشفيات بصعوبة أقل من ٥٠ مليوناً من الجنيهات .

وفضلا عن كل هذه التغيرات فستستفيد الدولة مباشرة وذلك بخصم ما تدفعه من إعانات المرضى وغيرها من التأمينات الاجتماعية كما تستفيد من تخفف الضغط على الخدمة الصحية الأهلية ومن زيادة مرونتها زيادة تربو على ما يشير إليه مجرد خفض المصروفات . هذا إلى جانب الأثر المذهل في الدخل الذي يرتفع بمعدل ١٠٠٠ مليون من الجنيهات سنوياً تقريباً بمجرد توقف وفيات المدخنين على الفور وعدم ظهور مرض يختطف هذا الكسب على الفور أيضاً . ولا يمكن أصلا القول بأن الضرائب المباشرة وغير المباشرة على وضعها الحالي والتي تدر على الحكومة ٣٠٠ مليون من الجنيهات تستطيع مع تحريم التدخين وتحقيق النتائج السالفة الذكر تدارك نصف ما فقد من دخل الحكومة تلقائياً . وفوق

هذا فإنهاء تجارة التبغ بين بريطانيا والأقطار المنتجة له بالإضافة إلى النتائج المترتبة على رفع الإنتاج، سيجعل صافى حركة التصدير والاستيراد فى مصلحة الدولة بما لا يقل عن ١٢٠ مليوناً من الجنيهات .

وليس من الواقعية بطبيعة الحال أن ننتظر وقوع هذه النتائج سراعاً حتى ولو تقرر مقاومة التدخين أو تحريمه غداً . غير أن هذه التقديرات لها قيمتها فى الإشارة إلى الأرباح والخسائر التى قد تنجم لو أن عادة التدخين تقل تدريجياً من الآن فصاعداً بين المدخنين من جيل إلى آخر . وبينما الآمال المعقودة على حدوث التغيير عن طريق الرؤى والوحى الملهم تمنيات لا أساس لها فإن الفوائد الاقتصادية الممكنة تذهب إلى مدى بعيد فى تغطية الخسائر — هذا فضلا عن موضوع ما تعانيه البشرية من آلام .

ولعل من الواقع المذهل أن شركات التأمين على الحياة لم تدخل فى حسابها وهى تقرر قيمة الأقساط ذلك الفارق الواضح المؤيد بالأرقام بين وفيات المدخنين وغير المدخنين فالفرق بين الحالتين حقيقة حسابية لها قيمتها ومع ذلك فلم تأخذ بها شركة واحدة للآن . ولقد ذهبت شركات التأمين ضد حوادث السيارات إلى أبعد مما كان منتظراً فقد منحت الذين لا يتعاطون المسكرات شروطاً أكثر سخاء فى حين أن مشكلة اكتشاف العود للتدخين — إذا كان ذلك أمراً حتمياً — أيسر بكثير من اكتشاف عدد السائقين السكارى فلا مجال للشك فى أن اكتشاف النيكوتين بعمل الصفة التشريحية بعد الوفاة سهل جداً ، إذ يظهر النيكوتين فى الأنسجة الرئوية كائنة ما كانت الكمية التى تسربت إليها فى حين أن كثيراً من المطالبات التى يقدمها السائقون الذين يحملون وثائق التأمين

التى تعطى للممتنعين عن المسكرات تحدث فى ظروف لاتسمح بفحص فورى لإثبات السكر .

وقبل أن أختم أغامر بذكر خاطرين لا يتصلان بالموضوع مباشرة من الناحية الاقتصادية وإنما يلابسانه إلى حد ما .

الأول — إنه كلما كثر الاهتمام بأمر اشتد الطلب على الدليل ، فإذا احتوى غذاء ما على مادة جديدة قد يكون لها آثار ضارة سرت بين الناس ضجة عارمة وطولب بتحريمها على الفور . فالمادة المستعملة فى صنع الحلوى « بلاك بول » التى قد تسبب سرطاناً فى بعض الحالات اتفاقاً قد حرمت على الفور بمجرد أن أصبحت موضع اشتباه أما التبغ فلم يزل من غير متابعة فعلية . فلو فرض أن زراعة التبغ كانت محصورة فى قطر معين وليكن مثلا فى أحد الأقطار الغربية ثم أعلنت الإحصاءات الطبية الخاصة بسرطان الرئة ، فمن كان يساوره شك فى تحريم التبغ من زمن بعيد ؟

الأمر الثانى — وأرجو له نتيجة طيبة قد تروق لأولئك الذين قد اشتركوا فى ذلك الموقف المتضارب المضطرب الذى خلقته مشكلة السجاير وأثرها فى ظهور سرطان الرئة . وقد يكون لهذا الخاطر سند من الواقع — هو أن معدل سرطان الرئة بين الأمريكان أقل منه بين البريطانيين رغم كثرة استهلاك الأمريكان للسجاير وذلك بسبب تركهم من السجاير أعقاباً أطول . فإذا كان الأمر كما ذكر فسيبيع صانعو السجاير ضعف ما يبيعون الآن وستنقص الحكومة ضرائب التبغ إلى النصف بدون أن يتأثر دخلها وسينفق الجانبان مبالغ كبيرة فى حض الناس على ترك نصف السيجارة من غير تدخين وسيدخن المدمنون قدر ما يشاءون بلا خوف ، إلا أن هذا قد يستبعد إذا ساور الناس حلم تدخين الغليون .

مشاكل اجتماعية

بقلم

لينا بحر

إن السجاير لم تطل دائماً من الأفواه كما لم يخترق الخزام الأنوف فى كل زمان ومكان . فالرضى عن ظهور الوجه البشرى وقد ركب عليه خرطوم حشرى ظاهرة حديثة نسبياً غير أنها حقيقة ينبغى التعليق عليها بشدة . فأكبر عائق فكرى عنيد يحوط عادة التدخين هو الوهم القائل بأن التدخين وظيفة طبيعية كالأكل والشرب . وإن الذين يظنون غير هذا هم المتزمتون والمارقون . إن العبارة « لايدخن » قد أصبحت فى العصر الحديث انحرافاً فيه بعض الهون ، وتلميحاً للتقلب والحقد والعصاب والقرب من النباتية وكراهية الحروب وجنون الهواء النقى وعبارة الهدوء وضغط الأقليات . فإذا لم يهدم هذا الوهم الفكرى القائل إن التدخين وظيفة طبيعية فلن تنجح أى حملة منفردة مبعثها التحمس أو التخوف .

والواقع أن تاريخ التدخين فى هذه البلاد متباين تباين الرسم البيانى لحمى المصـــدور . وينبغى أن نكشف الغطاء عن التاريخ الاجتماعى والاستعمارى والبشرى والاقتصادى قبل أن نتناول المؤثرات العصرية التى تقول باستحالة الاستغناء عن السيجارة باعتبارها ضرورة للرومانسية والاسترخاء والتركيز والذكورة والأنوثة والمجادلة . فبين التبسيط البالغ الذى يلجأ إليه أولئك الذين يفسرون عادات التدخين على كونها مجرد بديل عن مص حلمة الثدى ، وبين أساليب الدعاية العصرية

المعقدة تحكى قصة طويلة ذات صلة وثيقة بهذه العادات، فللغليون بطبيعة الحال مغزى شعائرى قديم . فرمز تدخين غليون السلام مثلا — وهو أن المتحاربين القدامى يستطيعون معه التجمع فى أمان — قد تأصلت جذوره فى سيكولوجية البشر ، فالواقع أن البشر قد انفردوا دون الحيوانات جميعاً ببلع الدخان عامدين من مئات السنين عند حرق البخور فى معابدهم مستشعرين الغبطة والسرور ، وذلك بمص البخور بأنابيب من الورق أو بثنى أوراق الشجر أو بمص أنابيب مصنوعة من الخشب أو الصلصال وكان هذا قبل إدخال التبغ إلى أوربا بزمن طويل فقد عثر على البوص والأنابيب بين كثير من الآثار الإغريقية الرومانية يوم كان أبوقراط العظيم يصف للناس استنشاق الدخان التماساً للشفاء من الربو وعلل أخرى. ولكن الدخان كان مصدره حرق روث البقر المجفف أو الأعشاب كعشب حافر الجحش . كذلك كان الناس الذين عاشوا فى بلاد الإنجليز فى القرون الوسطى يستنشقون الدخان علاجا « للأحزان التى تضيق بها الصدور » ومازال بعض الناس إلى اليوم يدخنون أمزجة من الأعشاب « ليمتعوا أنفسهم بالتدخين دون التعرض لأخطار النيكوتين » .

وليس هنا موضع الاستفاضة فى دراسة تاريخ عادة التدخين فى أشكالها المختلفة إذ يكفى أن نذكر شيئاً عن تدخين التبغ وخاصة على شكل سجاير فنقول إن أول عهد أوربا بالتبغ كان عندما أحضره كولومبوس من جزائر بهاما فى سنة ١٤٩٢ .

وقد كتب كولومبوس يقول « رأيت رجلا يستقل قارباً صغيراً بمفرده

قادماً من جزيرة سانتا ماريا فى طريقه إلى فرناندينا وكان معه أفرع جافة ذات قيمة بين الناس إذ قدموا لى شيئاً منها كهدية وأنا فى سان سلفادور ، وهذا أصل السلوك التقليدى فى الترحيب بالضيوف الذى ظل باقياً إلى اليوم .

وقد ذكر بعض المكتشفين الذين أرسلهم كولومبوس مع أدلاء أسبانيين أنهم رأوا الوطنيين وهم «يشربون» الدخان وقد كتب كولومبوس فى يومياته أنه رأى كثيرين من الناس يحملون جذوة نار ليشعلوا بها بعض الأعشاب ليتضمخوا برائحتها .

وقد ذكر مكتشفو العالم الجديد الأوائل أنهم رأوا الناس يمضغون شيئاً لابد أنه كان التبغ . وقد ذكر امريجو فزبوتشى فى سنة ١٤٩٩ أنه رأى حول شواطىء فنزويلا « الوطنيين وقد انتفخت أشداقهم بعشب أخضر يمضغونه باستمرار كما تفعل البهائم إلى درجة أنهم كانوا لا ينطقون إلا نادراً ، وواضح أن أولئك هم أسلاف الثقلاء فى عصرنا الحاضر ، تراهم وقد عضوا بأسنانهم على غلايينهم ويهمهمون من شدق واحد بكلام متقطع غير مفهوم (وحرى بالذى يخاطبهم أن يتحرى مايقوله هؤلاء الناس والغلايين فى أفواههم ، إذ لو قال لهم «معذرة» ثم كررها مراراً ترى معظمهم بعد لأى يخرجون غلايينهم من أفواههم وهى تقطر بصاقاً ليعيدوا فى صوت عال وفى تسامح ما سبق أن قالوه ، فخاطبهم فى نظرهم واضح الصمم) ومن الطريف أن فزبوتشى لاحظ أن النساء لا يمضغن التبغ فى حين أن رامون بانيه الراهب النشط الذى أرسله كولومبوس ليستطلع الأحوال فى هايتى ، كتب فى تقريره أن الناس هناك يستنشقون شيئاً لابد أنه كان السعوط وأن كلمة تبغ مشتقة من كلمة توباكو وهو غليون على شكل حرف Y اللاتينى كان الهندى يضع طرفيه فى منخريه ويسميه توباكو .

ويبدو أن طلائع المكتشفين كانوا يعتبرون التبغ شيئاً خاصاً لاستعمال الوطنيين المتوحشين . ولم تتضمن كتابات المكتشفين فى أوائل القرن السادس عشر إلا قليلا عن تلك العادة البدائية التى أصبحت بعد قرون رمزاً لسفسطة غريبة ، ولو اقتصر أمر التبغ على الغليون « توباكو » لما بلغ تأثيره على غرب أوروبا حداً يذكر ، ولكن الإسبان عثروا فى كوبا على الشكل البدائى للسيجار فتحول استعمال التبغ من لذة بدائية عابرة إلى عامل اقتصادى فاق فى أهميته معدنى الذهب والفضة ، وخلق البيض بسبب استخراجهما من المناجم طبقة العبيد وأصبح التدخين فى أوروبا سمة اجتماعية تلازم أجلاف الناس ، فالمكتشفون هم الذين أدخلوا التبغ إلى أوروبا وكانوا عادة من ذوى البأس والمغامرة فخطوا الخطوات الأولى فى عصور الاكتشاف الذهبية .

ومن سخرية القدر أن أول من أدخل نبات التبغ إلى أوروبا كان الطبيب فرانشسكو هرنانديز الذى أرسله فيليب الثانى ملك إسبانيا فى بعثة استكشافية ، كما أرسل بذور نبات التبغ إلى فرنسا كهدية إلى الملكة الأم كاترين دى مديشى سفير فرنسا فى البرتغال اسمه جان نيكوت ، ومن اسمه اشتقت التسمية العلمية نيكوتيانا ونيكوتين . ومن المظنون أن التبغ دخل بلاد الإنجليز عن طريق إسبانيا ، على أن هناك أدلة تشير إلى أن رالف لين أول حكام فرجينيا وفرانسيس دريك (أمير البحار المشهور) جلبا التبغ إليها فى سنة ١٥٨٦ ، وأهديا السير والتر رالى شيئاً منه ، ومن المحتمل أن السير جون هوكنز جلب بذور التبغ من فلوريدا فى سنة ١٥٦٥ وكان السير والتر رالى أول من دخن التبغ فى غليون ثم انتشرت عادة التدخين فى بلاط اليزابيث بسرعة . ويقول بعض المؤرخين إن الملكة الصالحة لم تجد جناحاً من ممارسة التدخين فى غليون ، وإنها لم تأب على

السير والتر رالى الاستمتاع بتدخين غليون ملىء بالتبغ قبل أن يلاقى حتفه بحبل المشنقة فى تاوار هيل سنة ١٦١٨ .

وفى نهاية القرن السادس عشر وغضون القرن السابع عشر ، انتشرت عادة التدخين فى أوروبا كما تنتشر النار فى الهشيم ، وقوبل التبغ كدواء بالاحترام والترحيب . وفى الوقت الذى وقف الطب فيه جامداً عقيما قام نيكوت نفسه يدعو ويقول : إن « للنبات الهندى » قدرة عجيبة على شفاء الأمراض والقروح والنواسير . وأصبح التبغ حجر الزاوية فى الطب الأوروبى وجزءاً من سخرية التاريخ ، إذ قام أطباء القرن السابع عشر (وبعض رجال الكنيسة) يدعون لاستعمال هذا العشب الضار الذى نحمل عليه اليوم ونحاربه . حتى إن تلاميذ مدرسة إيتون — إبان الطاعون الكبير ١٦٦٤ — ١٦٦٦ كانوا يؤمرون بتدخين غليون من التبغ كل يوم لوقايتهم من الوباء . وقد كتب بيبز يقول إنه عندما رأى الصلبان مرسومة على أبواب من ماتوا بالطاعون «اضطر لشراء بضع لفائف من التبغ ليشمها ويمضغ منها حتى ذهبت عنه غمة الفزع » . وقد دخن التبغ كجوهر دوائى واعترف به فى الفارماكوبيا ، واستعمل دخانه حقناً فى الشرج بواسطة منفاخ خاص وذلك لعلاج أمراض باطنية مختلفة . وقد سبق استعمال التبغ فى الطب ظهور عادة التدخين فى المجتمع . وقد حــذرت نشرات كثيرة من استعمال التبغ اعتباطاً من غير إرشاد وإشراف طبيب . ولم يلبث أن ظهر التدخين بأشكاله المختلفة فى أقطار أخرى من العالم المطروق فى الشرق الأوسط وإفريقيا وأقاصى الصين دون الاعتماد عليه فى التطبيب .

ولعل نزق الموضة كان عاملا أساسياً فى استهلاك التبغ فقد كان من مستلزمات

الأناقة والحذلقة عند الأغنياء المترفين فى أوائل القرن السابع عشر أن يكون لدى السيد منهم مجموعة من الغلايين الغالية الثمن .

وكان التدخين من هوايات وتقاليع الموسرين الطامحين فى تبوء المراكز الاجتماعية العالية . وقد أشار جونسون إلى إعادة التدخين فى سياق قوله « وقد يبدو غريباً أن يعد التدخين ضمن وسائل التهذيب فى المدن إذ كان آنئذ موضوع دراسة هامة كان لها أساتذتها أسوة بالفنون الحرة الأخرى » .

ولعل جنوح المدللين العاطلين فى ذلك الوقت إلى الإسراف فى التدخين هو الذى حدا بجيمس الأول إلى شن حرب على التدخين وذلك بإصدار منشوره ضد التدخين(١) فى سنة ١٦٠٤ الذى نسف فيه عادة التدخين نسفا . ويحتمل أن منشأ كراهية الملك للتبغ أو التدخين قد اقترن باسم رالى الذى كان الملك يكرهه كراهيته للموت وأن الشباب المرجو لضروب الشهامة والشجاعة كان قد انصرف إلى الملذات العقيمة المرذولة بما فيها التدخين بما أثار كوامن نفسيه المنقبضة السوداء . على أنه يبدو أن جيمس الأول فطن إلى ما تنبأ به بعض أطباء عصره فقد كتب — ما يصلح لجعله مقدمة ملكية للتقرير الذى أذاعته كلية الأطباء الملكية فى سنة ١٩٦٢ — يقول « وبسبب هذه النتانة الغالية الثمن كشف التشريح عن وجود إصابة وتلوث فى أحشاء المكثرين من التدخين بضرب من السخام الزيتى » .

كذلك حاول ذلك الملك أن يخجل الناس ويعيرهم بقوله « إن الهنود

---

(١) Counterblaste to Tobacco.

إنما يستعملون التبغ لأنه علاج نوعى للمرض التناسلى السرى(١) ولأن السادة الذين يدخنون يعرضون أنفسهم لخطر التلميح بأنهم يدخنون التبغ ليبرأوا من مرضهم الخبيث المرذول .

وقد لمح جيمس الأول ومشايعوه إلى ما يهدد المدخنين فى رجولتهم بقوله :

التبغ ذلك الحشيش الضار الدخيل .

يصيب اللقاح بالموات والعقل بالخبل الوبيل .

ويتلف الروح ويغشى البصر .

ويسلب المرأة حقها المعروف .

على أن مقاومة التدخين فى انجلترا لم تصل إلى الدرجة التى وصلت إليها فى روسيا التى أصدرت فى سنة ١٩٣٤ قرارات رهيبة مؤداها « أن المشترين والبائعين والمدخنين للتبغ تشق أنوفهم ويجلدون وفى حالة العود ينفون إلى سيبيريا أو يعدمون » .

وفى غضون القرن السابع عشر أصدرت الدانمرك والسويد والأراضى الواطئة وصقلية والنمسا والمجر قوانين تحرم التدخين ، بلغ أثرها ما يبلغه حظر التدخين فى المدارس هذه الأيام . إذ شاع التدخين شيوعاً وخاصة فى أسبانيا لدرجة دعت البابا أوريان الثامن إلى إصدار منشور حبرى

---

(١) يقصد مرض الزهري syphilis الذى كان يسمى فى مصر زمناً طويلا « المرض الأفرنجى » إشارة إلى مجيئه من أوروبا بصفة عامة وأسبانيا بصفة خاصة والذى جلبه المكتشفون والبحارة من أمريكا . المترجم

توعد فيه من يدخن أو يستعمل السعوط فى الكنيسة بالحرم . وحاول من أتى بعده من البابوات إصدار هذا المرسوم من جديد .

وكان هذا أكثر انطباقاً على مشكلتنا الحاضرة مما قد يبدو لأول وهلة إذ ينبغى أن يكون مفهوما أنه ثبت أن عادة التدخين قد استعصت على جبروت وجلال البابوات والملوك وأن الناس قد خاطروا وجعلوا من أنفسهم عبيداً وإماء للنيكوتين، وإذن فالتشريع وحده لا يقوى إلا على شىء طفيف مالم يسانده اقتناع من الرأى العام واستيعاب للقصد من التشريع . ولهذا لا يرجى القصد فى التدخين عن طريق التشريع بل لابد للنظام العام من القيام بدوره .

كذلك لم تنجح جميع المحاولات فى الحد من التدخين عن طريق فرض الضرائب فعندما فرض جيمس الأول الضرائب الباهظة على التبغ كان يهدف إلى صرف الميل إليه وإلى التعبير عن عدم رضاه الأدبى أكثر مما كان يهدف إلى جعله مصدراً من مصادر دخل الدولة ، ولكن لم تلبث هذه الناحية أن طغت على سائر النواحى الأخرى وأصبح التبغ فى فرجينيا محصولا رئيسياً ودعامة الاقتصاد فى المستعمرات كما أصبحت تجارته واسعة راسخة الأقدام ، ثم جاء تشارلس الأول وكان أيضاً يكره التبغ فأضاف الجديد إلى موارده وذلك بفرض ضرائب على واردات التبغ وحوانيت بيعه . وحاول الناس زراعته فى انجلترا فاعتبر ذلك أمراً غير شرعى حماية لمنتجى التبغ فى المستعمرات، وسرعان ما أصبحت انجلترا مع مرور الأيام مركزاً رئيسياً لتجارة التبغ فى أوربا بأسرها .

وإزاء اليسر الذى عم أوروبا بسبب التدخين انهار بالتدريج ذلك التضييق القانونى الذى ضرب عليه ، إلا أن سويسرا وخاصة مدينة

برن ظلت متمسكة بالتضييق زمنا أطول إذ أدخل مجلسها التدخين ضمن نطاق جرائم الفسق وظلت عقوبته حتى القرن الثامن عشر كما هي أى السجن والغرامة والتشهير بالمدخن . أما فى روسيا فقد ألغى بطرس الأكبر (١٦٧٢ — ١٧٢٥) سائر القيود على التدخين على اعتباره مظهرا من مظاهر التمدين الغربى .

ولما كان المجتمع دائم التطلع لكل جديد فقد ظهر فى أوائل القرن الثامن عشر استعمال السعوط (النشوق) بعد أن استتبت عادة التدخين . والنشوق أساساً هو تبغ مسحوق يستنشق بالأنف فيثير عطاسا متعاقبا منعشا . ومما لا شك فيه أن رائحة النشوق كان ترياقا محبباً لتلك الروائح الكريهة التى كانت دائمة الانتشار فى تلك الأيام . وكان يوجد أول عهد انجلترا كميات كبيرة من النشوق عندما أمسكت سنة ١٧٠٢ مراكب إسبانية محملة بالتبغ فى خليج فيجو . وكان استنشاق الأعشاب معروفاً قبل ذلك بالطبع . ولكن القرن الثامن عشر كان عهداً ذهبياً للنشوق إذ كان استعماله شائعاً وقتئذ شيوع مضغ اللبان عند الأمريكان فى هذه الأيام . ولعل هذا التموج الذى أصاب العادات ذهاباً وجيئة هو الأمل الكبير الذى يراود أعداء التدخين ، فشئون البشر لا تعرف الثبات والاستمرار ، وأقلها جميعاً عادات المسرة فالاسترواح والعطس والشخر والتنخم والتجشؤ ، وهى التى تصاحب عادة التنشق بالسعوط ، كانت فى القرن الثامن عشر من آداب السلوك المعترف بها فى أرقى المجتمعات وخاصة فى انجلترا وفرنسا حيث ظهر مائة ضرب من النشوق المتباينة الألوان المضمخة برائحة العنبر والبرجموت والقرنفل والأرز وغيرها ، والموضوعة فى أغلفة ظريفة عليها بطاقات رائعة تحمل مختلف الأسماء الجذابة — ولعل من هذه الأوضاع انبثقت الإعلانات الحديثة — وأصبح صنع علب النشوق أرقى أنواع الصناعات اليدوية .

ومع انتشار استعمال النشوق قل التدخين، وقد كتب الدكتور جونسون فى كتابه « رحلة إلى الهبريد(١) » سنة ١٧٧٣ ما يأتى « فقد اضمحل التدخين وإنه لشيء مريع حقاً أن ننفث الدخان من أفواهنا إلى أفواه وأنوف وأعين غيرنا من الناس ثم يفعل الآخرون بنا نفس الأمر . إلا أننى لا يمكننى تعليل السبب فى اضمحلال شيء لا يحتاج إلا إلى جهد قليل ومع هذا يحفظ العقل دون الخلو والركود » .

وفى رأى بروفسور ج . م ترفليان أن التدخين توقف ثمانين سنة تقريباً . لا لأنه لم يكن هناك تدخين بل لأنه لم يكن ليتفق مع اصطلاح العصر . فالتغير إثبات جديد لقيام أسلوب العصر . وقد يكون الوقت قد حان لوقوع مثل هذا التغير فى عادة التدخين اليوم . إن الساعة ستدق لا محالة وإنما بمساعدة يسيرة من تحذير الأطباء . وجدير بالملاحظة أن التدخين فى القرن الثامن عشر قد اضمحل بسبب جزئى وهو ظهور النشوق .

ولا يمكن اتهام بو ناش (١٦٧٤ — ١٧٦٢) وهو أبعد المتأنقين شهرة فى انجلترا بأنه كان يجهل فن المتعة والتسامح مع الذات ، فلقد كان رئيس التشريفات فى باث عندما بلغت آداب السلوك الشأو الأعلى وساهمت جهوده الشخصية فى واقع الأمر ، وإلى حد بعيد فى وصولها إلى هذه المرتبة ومع ذلك فقد كان صارماً فى منع التدخين فى الحجرات العامة فى باث على اعتبار أنه يتنافى مع احترام السيدات ومع الكياسة . وقد صادف هذا المنع قبولا من الناس .ذلك المنع الذى كان إحدى محاولات ناش — وقد

---

(١) The Fournal of a Tour to the Hebrides.

نجحت إلى حد كبير — فى إلباس الحياة مزيداً من الجمال والأناقة . فإلى جانب تضييقه على التدخين أبطل عادة حمل الخاصة للسيوف فى مواطن الترفيه والاستمتاع، واستهجن المبارزة وشجع علية القوم على لبس الجوارب وإيثار لبس الأحذية القصيرة على الأحذية الطويلة ، وبدأ منذ ذلك الوقت تخصيص حجرات للتدخين فى المنازل الريفية الكبيرة يلجأ إليها أصحابها وضيوفهم للتدخين فيها دون سواها .

ولم يلبث أن تدرج « النهى » غير الملموس كمعيار للسلوك السوى إلى اعتبار تدخين التبغ سلوكاً منحطاً أو داعراً لا يليق إلا بالجنود والسوقة كما بدأت عادة استعمال النشوق فى الاضمحلال أولا فى فرنسا عندما قامت الثورة فيها فقد كان استعمال النشوق عادة تلازم طبقة الأشراف ملازمة عميقة الأثر .

وبعد توقف حرب شبه الجزيرة (١٨٠٩ — ١٨١٤) التى انتهت بانتصار الإنجليز على فرنسا وإسبانيا وجد الجيش السجار فى متناوله بكثرة — وكان قليلا ما يستعمل فى انجلترا قبل ذلك — فتزايد تدخين السيجار وأصبح سمة من سمات الأناقة حتى بين النساء إذ كن يدخن سيجاراً صغيراً اسمه « الملكات » ، ولكن القرن الماضى شهد كبحاً للتدخين وذلك عندما اعتلت فيكتوريا العرش فى سنة ١٨٣٧ وكانت تضيق بالتدخين فظهرت قيود لا فرار منها قيدت التدخين .

ولكن الحرب مرة أخرى غيرت من عادات التدخين إذ ظهرت لفافة صغيرة من التبغ سميت سيجارة شاع استعمالها فى أوربا وأمريكا ، وقديماً كانت ثمة لفافة كالسيجارة شاع استعمالها لمدة طويلة فى المكسيك والهند

وسيام إلا أن السيجارة فى شكلها العصرى لم تصبح شائعة فى أوربا إلا فى القرن التاسع عشر فحسب ، فإن الإنجليز عندما اشتركوا فى حرب القرم (١٨٥٤—١٨٥٦) وجـــدوا حلفاءهم الفرنسيين والأتراك على وجه الخصوص يدخنون سجاير يلفونها بأيديهم أحيانا . ولما كانت الغلايين تتهشم فى أثناء القتال والسيجار غالى الثمن وبعيد المنال، شقت السجاير طريقها واحتلت مكانها وعاد الجنود الإنجليز إلى وطنهم لينقلوا إلى بلادهم النمط الجديد الذى دفع بعاداتهم فى التدخين إلى مدى بعيد جداً ، فبدأ يتفشى بين الناس جميعا منذ ذلك الحين حتى تحول التبغ إلى صناعة كبيرة واسعة وانتشر التدخين بين الناس رغم عدم الرضى الذى أبداه الدوق ولنجتون الذى شارك الملكة فيكتوريا سخطها على التدخين ومقاومتها له ، ففى سنة ١٨٥٤ أصدر أمراً عاما لقواد الكتائب يحرم فيها التدخين فى قاعات المعسكرات المعدة للأكل ويقنع صغار الضباط بالعدول عن عادة التدخين ولكن كتب على الدوق الظافر أن يخسر الجولة . وكانت السجاير تستورد من الخارج إلى أن أسس يونانى اسمه تيودورى فى سنة ١٨٥٦ مصنعاً للسجاير فى انجلترا نفسها واستمرت هذه الصناعة زمناطويلا وقفاعلى المستوطنين الأجانب وخاصة يهود بولاندا وروسيا ممن نزحوا إلى انجلترا فرارا من الاضطهاد .

غير أن استمرار الملكة فيكتوريا فى اعتراضها على التدخين لم يمنعه من الانتشار ، وغاية الأمر أنه أحيط بفروض من قواعد اللياقة . ولعل الوالدين فى العصر الحاضر ممن يحسون بالقلق على أولادهم يمكن أن يفيدوا قليلا من أوامر الملكة فيكتوريا الصارمة فقد كان ادوارد السابع شغوفا بالتدخين دءوبا عليه لدرجة أنه انصرف وأمه تحتضر إلى خارج القصر

ليدخن . وكان قد أسس مع لفيف من أصدقائه نادى ماربورو فى سنة ١٨٦٨ ليكون مكانا ملائما ممتعا يختلف إليه « المجتمع المهذب » . ولم يقتصر القصد من تأسيس هذا النادى على أن يكون احتجاجا من الأمير على القوانين الوحشية التى وضعتها أمه بل تعداه ليكون اعتراضاً على القيود التى فرضتها الأندية الأخرى على التدخين وخاصة نادى هوايت فقد درجت الأندية المشهورة على تخصيص حجرات للتدخين ليحول ذلك على الأقل دون تلوث سائر أجزاء المكان برائحة التبغ .

ومن المظنون أن ولى العهد كان مصدر التقليد . وهو شرب النخب فى الوقت المحدد لبدء المهام الرسمية ، فإنه فى الوليمة الملكية الأولى بعد اعتلائه العرش نظر فى عطف إلى المجتمعين فى قاعة شرب القهوة ممن استبد بهم الحرمان من التدخين الذى حرم فى هذه القاعة أكثر من ستين عاما فنطق جلالته بما أحدث ثورة فى البلاط إذ قال « أيها السادة يمكنكم التدخين » .

كان الرجال فى عهد فيكتوريا يحرصون على تجنيب السيدات رائحة التبغ فقد كن يرغبن فى تقليد الملكة فى الإحساس بهذه الأمور ، فشاع بين الرجال لبس سترة خاصة عند التدخين حتى لا تتلوث الملابس برائحة التبغ بل وذهبوا إلى أبعد من هذا فكانوا يضعون على رءوسهم أغطية تحول دون تشبع الشعر برائحة التبغ وأصبح التدخين قائما بذاته لا مصاحبة عرضية لمهمة أو للهو .

وعلى الرغم من ازدياد التدخين فى أواخر القرن التاسع عشر فإنه لم يصل إلى ما نراه اليوم إذ يمارسه الناس فى كل زمان ومكان تقريبا . ففى القرن الماضى كان يوجد فى لندن مثلا إيوانات خاصة يختلف إليها الناس لتدخين

السيجار ويذكر ترولوب[١] فى كتابه « ذى واردن » (١٨٨٢) أن مستر هاردنج فى أثناء إقامته فى لندن زار حانوتا لبيع السيجار فوجد فوقه إيواناً للتدخين « غاية فى الأنس » .

وتألفت بطبيعة الحال فى انجلترا وأمريكا طوال تلك السنين جمعيات لمنع التدخين ولكن امتدادصناعة السجاير تسندها حملات ناشطة متطورة للترويج للبيع تستخدم فيها كل الوسائل ومن بينها تقديم بطاقة السجاير قد أدى إلى انتشار التدخين . ومع ذلك فقد روعى فى جميعها وجهة نظر الملكة فيكتوريا والتزمت النساء على الأقل — إلا من كن غاية فى الجرأة عدم التدخين جهراً حتى فى فرنسا عندما مثلت مسرحية كارمن ، وعنوانها الثانى « رواية صانع السجاير »[٢] لأول مرة فى سنة ١٨٧٦ ظهر على دى لوفان مساعد مدير الأوبرا الهزلية أمارات الرعب فى موضعين، الأول عندما وقف الكوراس فى الفصل الأول وهم يدخنون ، والثانى فى ختام الرواية عند وقوع الاغتيال .فالمشهدان سواء فى تكدير صفو المشاهدين . وفى سنة ١٩٠٩ أى من زمن قريب اعتمدت أوبرا فولف فرارى « سر سوزانه »[٣]فى عقدتها المسرحية التى تدور حول محاولة الكشف عن سر جريمة زوجة ، فإذا السر ليس وقوعها فى غرام عشيق بل تدخينها سراً وقد سلم جمهور المشاهدين بقوةهذه العقدة مما يقوم دليلا على اختلاف وجهة نظر الأمس عنها هذه الأيام .

وقد أصبح التدخين على المسرح فى انجلترا مع مرور الزمن أمراً

---

(١) The Warden by Trollop.

(٢) The Ggareites Makers Romanre

(٣) Il Segreto di Susanna by Wolf ferrari.

مألوفا جداً على اعتباره جزءا من الحوار أحيانا أو من مستلزمات الإخراج أحيانا أخرى ليشغل الممثل يديه فى عمل ما . وقد حرص برنارد شو دائما أن يكون صريحا فى هذه المواقف فإذا أراد لممثليه أن يدخنوا ذكر ذلك صراحة فى النص ، فهو يقول مثلا فى الفصل الأول من مسرحيته «منازل الأرامل[١] (١٨٩٢) يصف ترنش وهو يحك الكبريت ويشعل غليونه وكذلك فى مسرحيته « مهنة مسز وارين » (١٨٩٤) يجعل فيفى تقول «هاتى لى علبة السيجار أرجوك» وفرانك يقول «عادة نسوية مرذولة، لقد أقلع ظرفاء الرجال عنها » فتقول فيفى « أجل إنهن يكرهن رائحته فى المكاتب فكان لا بد لنا من الالتجاء للسجاير انظر (تفتح العلبة وتخرج منها سيجارة وتشعلها) .

وهذا تعارض طريف مع ما هو حاصل اليوم ، فهناك محاولة لصرف المدخنين عن السجاير نحو السيجار على اعتباره أقل أذى .

وقد شهد هذا القرن مرة أخرى زيادة هائلة فى التدخين بسبب الحرب التى جعلت المحاربين فيها يحفظون عن ظهر قلب « ما دمت تملك شيطان الجحيم ليشعل لفافتك » حفظهم للسطر الأول من النشيد الوطنى . وهيهات لهـذا الجيل أن يدرك شيئاً عن حياة الخنادق فى الحرب العالمية الأولى فهو لا يحمل نفسه مؤونة قراءة كتب ألفريد أوين ليعيش بعقله معه فى كتابه « نهاية المرحلة » وكتابه « كل شىء هادئ فى الميدان الغربى » وكتابه « موت البطل » . إن كثيرين من شيوخ هـذا العصر بدأوا التدخين وهم تحت رحمة الوحل والصقيع والدم الذى امتلأت به حفر

---

(١) Widowers Houses dy Bernard Shaw

الخطر حيث كانوا يعيشون فى شبابهم المنكوب فى الحرب العالمية الأولى . لقد كان بعضهم يأمل أن تخيف جمرات السجاير الفئران المتسللة وبعضهم ظن أنها تدرأ القمل . ويحكى الكثيرون منهم كيف كانت السيجارة تطوى وقت الانتظار الذى لا أمل فى أن يكون له آخر ولكن فى أغلب الحالات لم يكن هناك تبرير لذلك . وهل هناك ما يدعو لأى تبرير ؟ فقد أصبح إرسال « الأدخنة » إلى الجيوش أحد الأشياء القليلة التى يستطيع مجتمع مدنى مذنب عاجز أن يقدمها للمدافعين عنه . ويقيناً أن الرجال والنساء الذين اشتركوا فى حربى هذا القرن لم يكن لديهم من الأسباب ما يدعو لشكهم فى حاجتهم للتدخين . أما شباب اليوم الذين يدخنون فلم يعرفوا متعة التدخين العارضة اليائسة أو يفتقروا لها فى ظروف لا دفع لها ، وجد فيها كثيرون من أجدادهم وأبنائهم . أجل لقد بدأوا ولم يتوقفوا أبداً وأصبح التدخين جزءاً من صميم حياتهم المنزلية. وأصبحت منفضة السجاير جزءاً من أثاث المنازل وأداة للزينة ليس عنها غناء . وسرت عادة التدخين إلى كثير من الأمهات فماذا بقى حتى يقال لجيلنا الحاضر ؟

إن مشكلة العصر تنحصر قبل كل شيء فى الأطفال أما الباقون منا فأمرهم لله مما حاق بهم . إن ما فعلناه ونحن فى ظلام الجهل ثم ونحن مكبلون بقيود العادة قد باغتتنا به المعرفة التى حرمنا منها والتى لا نجرؤ اليوم على إغفال تقديمها لشباب الجيل الحاضر . فواضح أنه ينبغى على جميع من يتصل بالأطفال اتصالا مباشراً أن يبذلوا جهدهم حتى يقلعوا عن التدخين أمامهم وحتى يصفوا التدخين لهم على كونه محنة وشذوذاً فالأطفال اليوم تتفتح عيونهم على بيئة توعز بأن التدخين أمر طبيعى مسلم به وأن الامتناع عن التدخين حرمان وشذوذ .

وواضح أن الآباء الذين يدخنون يصبحون فى موقف لايحسدون عليه عندما يحاولون الحيلولة بين أطفالهم وبين التدخين ، فالأولى بالوالدين أن يمتنعوا أولا ثم يلقنوهم أن عادة التدخين نشأت بين من هم أكبر منهم فى فترة معينة عصيبة أحاطها عسر وتوتر ، لا أن يتركوهم وهم على اعتقاد أن التدخين أمر لا بد منه ولا غناء عنه كالأكل والشرب والحب . إن إقناع الأطفال بفوائد عدم التدخين ليس هيناً ولا ليناً إذا درجوا على رؤية والديهم والسجاير بين شفاههم وأصابعهم يقدمونها لزوارهم وكأنها من الشعائر والطقوس ويهدونها هى ومستلزمات التدخين فى المناسبات والأعياد ، كما يرونهم يدلفون فى الأمسيات إلى المدفأة يدخنون فى استمتاع وراحة واسترخاء ، بل ويلمس الأطفال ضيق آبائهم المتلف عندمايتوقفون عن التدخين .

فإذا كان الآباء فى هـذه الملابسات موضع الحب والتقديس والمثل الذى يحتذى فى كل شيء فكيف يتقبل الأبناء قول آبائهم فى هذا الصدد دون العصيان والغدر ؟

وقد يكون من المفيد أن يذكر الآباء إدمان التدخين بالأسف والتحسر وأن يلتزموا الموقف السلبي « إفعل كما أقول لا كما أفعل » فهذا أفيد من التحريم القاطع . ومن الممكن أن لا يخشوا اتهامهم بالشح إذا هم حدوا من كرمهم وأقلعوا عن عادة إعداد الصناديق الذاخرة بالسجاير لتقديمها لضيوفهم بصفة آلية حتى لا يشب أطفالهم وهم يعتقدون أن آداب السلوك فى مجتمع الكبار تقضى بتقديم المضيف إلى كل ضيف بصندوق السجاير . وحتى لا يتشربوا — لا شعورياً وبلا فائدة — عادة توزيع النيكوتين على الناس .

وقد يستنتج المدرس الذى يشعر بالإثم بسبب غليونه الذى يحتفظ به فى السر أن أى تضحية من جانبه تضيع هباء فتلاميذه يقرأون ويسمعون فى كل يوم فى الصحف والإعلانات المنصوبة فى مفترق الطرق العامة وفى إعلانات التلفزيون التجارية إشادة بأنواع عديدة من التبغ والسجاير. وحتى فى الإعلانات التى تروج لسلع أخرى كالجعة والأحذية والزيت المرطب للبشرة التى لوحتها الشمس يصور فيها الأشخاص المثاليون من معبودى الجماهير رجالا كانوا أو نساء وهم يدخنون. كما تنشر الصحف صور الناس المشهورين والعاديين وهم يحملون فى معظم الحالات غليوناً أو سيجارة وكأنها جزء لا يتجزأ منهم فإذا اتسمت الشخصية المصورة بالجاه والثروة حل السيجار محل الغليون والسيجارة.

وليس التدخين بالطبع هو الوحيد الذى تحوطه المبالغة فى إثبات وجوده، فهناك أمران يتصلان بالتدخين فى مجتمعنا المجنون بالإعلان: الأول أن رأس المال المستغل فى الإعلان عن التدخين بكافة أشكاله ومستلزماته ضخم جداً فى حين أن المجتمع مفتقر لهذا المال شدة الافتقار لاستثماره فى الإنتاج، والثانى أنه قد أصبح من الثابت بالاختبارات الطبية أن التدخين مضر قطعاً وأنه كان ينبغى منطقياً أن لا يقبل مجتمع رشيد الإعلان عن التدخين كما يفعل بأى شكل من أشكال إدمان العقاقير الهدامة.

وعلى العكس فإن مشاهير الناس يتطوعون بتقديم أسمائهم لمؤسسات التبغ لتقوم هيئة الإعلان وهى موهوبة ضخمة الموارد فتوهم الناس بأن التدخين له صلة وثيقة بالرومانتية والثقة بالنفس والنجاح والاسترخاء أو التركيز وذلك حسبما يحلو لها ويلائم الظروف الملابسة. بل وتصر

على القول بأن الرجل الناجح أو المرأة الناجحة لا يكتملان أناقتهما إلا إذا كان فى الفم غليون أو سيجارة حتى بات الإنسان الغرير المخدوع يعتقد أن السيجارة إضافة لملامح الوجه وقسماته .

لقد تناول هذا الكتاب موضوع الإعلان بالتفصيل فى موضع آخر ويكفى القول هنا بأن خطر الإعلان أو تقييده كفيل بإحداث بعض التغيير — ولو قليلا — فى الحد من التشجيع البيئى للتدخين وهو ما ينبغى الترحيب والأخذ به كما فعلت حكومة إيطاليا إذ أصدرت القانون رقم ٦٥ ليكون نافذ المفعول اعتباراً من ٢٩ أبريل سنة ١٩٦٢ يحرم أى شكل من أشكال الإعلان عن التبغ أو السلع التى لها صلة بالتدخين سواء أكانت مستوردة أم من إنتاج إيطاليا . ولعل من المفيد استعراض أثر هذا القانون من ناحية استهلاك التبغ ومن ناحية دخل الدولة ، فالحكومة الإيطالية رغم استنكارها للتبغ قد راعت وهى تضع هذا القانون أن دخل أى حكومة من رسوم التبغ يقابله ماينفق على التدخين وهو كثير لا يمكن حصره . والمرجو أن أى حكومة مسئولة تزن هذه المشكلات لا تنظر إلى النتائج الحسابية فحسب فإنها إن فعلت فلا بد لها أن تدخل فى اعتبارها نفقات الرعاية الصحية الأهلية ونفقات العلاج من الأمراض التى يسببها التدخين والتى يزيد من خطورتها الخسارة الناشئة عن الانقطاع عن العمل كذلك نفقات النظافة العامة وهى هائلة تبذل فى التخلص من مخلفات التدخين التى تلوث وسائل الانتقال ومحطات السكك الحديدية والشوارع والمكاتب والإدارات وما إلى هذه ، ويضاف إليها مجموع الخسائر الناشئة عن الحرائق وهذه جميعها تكلف الدولة ملايين الجنيهات .

وقد استبان من الحقائق التاريخية التى سبق ذكرها فى إيجاز أن حل

هذه المشكلة لا تكفله العقوبات وخاصة مع المدمن ، فمثيل الإجراءات التى يحاول الايطاليون اتخاذها لهـا قيمة كبيرة من الناحية السلبية ، ومع هذا فلها مغزى هام فأولئك الذين لا يدخنون قـد يداومون على الامتناع عنه لمدة أطول من غير أن يحسوا توتراً أو افتقاداً لمتعة متأصلة لا تقاوم .

وإنه لمن الخير من الناحيـــة الأخرى لو أمكن تخصيص جزء من تـكاليف الإعلانات عن التبغ لاستغلالها فى شن حرب على التدخين على شرط أن تـكون حرباً يحكمها تخطيط وتدبير معقول لتظل نارها مشبوبة سنين طويلة وأن يتعهدها أفراد كثيرون ممن تحبهم الجماهير ويفخر بهم الشباب من الجنسين ، ونحن لا ننكر أن ثمة جهوداً قد بذلت من هذه الناحية ولـكنها كانت ضئيلة إلى درجة محزنة .

فقد فـكر المجلس المركزى للثقافة الصحية فى مشروع مدرسى خاص وذلك بتخصيص وحدات متنقلة قوامها عدد من الخطباء وأفلام ومقتطفات من أشرطة سينمائية ونبذات موضوعية ، كما قدمت جمعيات أمراض القلب والصدر ووزارة الصحة وغيرها من المؤسسات ما لديها من المنشورات والإعلانات الـكبيرة . كما عمدت بعض الهيئات المحلية إلى إصدار منشورات خاصة لتوزيعها على طلبة المدارس الذين يوشكون على الانتهاء من دراساتهم (على الرغم من الوثوق من تغلغل عادة التدخين فيهم منذ بكور سنيهم الدراسية) ولعل من سبق الحوادث التكهن بمدى تأثير ذلك على الشباب إذ يبدو من مدى استجابتهم أن هذه المشكلة عويصة وأنها تفتقر إلى نصائح صادرة عن ذكاء بالغ وخبرة ناضجة .

ولقد سمعت اقتراحاً لا يحتمل الجد كله ، ومؤداه أن أحسن ما يروق الصغار أن يلقى فى روعهم أن التدخين نافع لهم فلقد كان الأولاد فى القرن

السابع عشر يرسلون إلى المدارس ومعهم غلايين محشوة بالتبغ يشعلونها عندما يؤمرون بذلك ثم يتلقون درساً فى التدخين على اعتباره إحدى المواد الدراسية المقررة سواء أحبوها أم كرهوها .

وقد تناولت جمعية أمراض القلب والصدر هذه النقطة فى إحدى نشراتها فى خطاب إلى الشاب تقول له فيها :

« أما وقد أوشكت على الاكتمال فقد حان الحين أن تستخلص لك رأياً فى التدخين ولن تفيد الاعتبارات الأدبية . فهف الدخان دخولا فى الفم وخروجا منه ليس وزراً بالمعنى الصحيح . فإذا قررت وأنت إنسان مكتمل أن تدخن فلن تحس بالبهجة على اعتباره أمراً محرماً ولا جناح عليك من التدخين ولكنك ستدفع عنه فى أخريات أيامك حساباً عسيراً .

إن الأوامر الصارمة بمنع التدخين فى المدرسة قد تزيد من المتع المختلسة كما قد تزيدها العقوبة نشوة ومن ناحية أخرى فمفروض أن استهلاك السجاير يقل عندما يكون التدخين فى غير جهر . ومنع التدخين من أوضح وظائف النظام التأديبى المدرسى . إلا أن الآباء وهيئة التدريس قد يكونون السبب أحياناً فى تقويض هذا النظام . وهنا لا بدلى من ذكر أمر أؤكده بشدة وهو أننى كنت فى مدارس تزحمها إعلانات كبيرة تحذر من التدخين وتبصر بمضاره حتى أصبح الموضوع كله له أبعاد واضحة ، وإذا بأحد الصبيان يقول لى : « أنا واثق إننى كنت لا أعير التدخين التفاتاً إلى هذا القدر لو لم يتناولوه فى إصرار ومداومة » فقد كان يدخن بموافقة والديه ثلاث إلى أربع سجاير فى اليوم ولم يكن ليسلم لا هو ولا أقرانه

بأى حجة عن مضار التدخين فى أثناء التدريب الرياضى بل كانوا يصرون على أن أفضل أقرانهم كانوا يدخنون عـــدداً قليلا من السجاير كما أن من لم يدخنوا لم يكونوا بأفضل منهم كسباحين أو لاعبى كرة أو كريكيت .

ولعل من المشاكل وخاصة عند المراهقين الذين يحاولون عدم التدخين افتقارهم الأكيد الذى يحسه ويضطر له الكثيرون وهو عمل شىء ما بأيديهم عند مكابدتهم حرجاً اجتماعياً فهو يتلاشى ويذوب كالثلج بمجرد تقديم سيجارة كما يعالج توقف الحديث بإشعال عود كبريت أو نفض عقب سيجارة أو حشو غليون بالتبغ أو التخلص من فضلاته . فإذا اجتمعت جماعة ولم تجد ماتقوله فالصمت يكون أقل حرجا مع التدخين . كما أن الألفة عادة ما تشيع بين شخصين التقيا على ضوء بينهما . إن الثقة بين الجماعة تقلل من هذه الاعتبارات ولكنها لاتضيع من قيمتها أصلا ، والمهم أن يدرك الشباب أن التدخين عنـد معظم الناس وفى واقع الأمر مجرد تمحك اجتماعى فهو فضلا عن أنه أبعد مايكون دليلا على الوصول إلى طور النضوج فإنه يفضح النقص فيهم وعدم اكتمالهم وافتقارهم إلى الثقة بذواتهم . إنه نوع من النكوص الاجتماعى الذى يختفى مع نمو الثقة بالنفس .

أما فيما يختص بالفتيات فقد اعتبر التدخين فى وقت من الأوقات إشارة إلى التقدمية المتحدية الجريئة . إلا أن مثل هـــذه الفتيات أحق بالإشفاق والتحسر فالتدخين أتفه الوسائل وأبشعها لادعاء الانطلاق والتحرر من الكبت ، بل هو عمل داعر أيضاً ورمز هزيل جداً للعصرية فالخلاسيات الهنديات ظللن قرونا يدخن كما أن نساء بريطانيا حاولن التدخين منذ عصر

اليزابيث أى منذ ثلاثة قرون ونصف قرن . ويبدو أن المبالغة فى التحذير من سرطان الرئة لم يبلغ غاية القصد فكلمة سرطان تبدو لبعض الفتية وتعنى كارثة ربما نزلت بأجدادهم فيما مضى وقد تنزل لهم فى سنيهم المقبلة . وكيفما كان الحال فإن كلمة سرطان تعنى رزءاً فادحاً مطلقاً . وإذن فهى غير مقبولة تماماً فى سياق حياتهم اليومية . وهذا من السخرية من بعض الوجوه ، فالمفروض أن يكون للفاجعة أقصى الأثر على الشباب . ولكنى شاهدت ألا تأثير لها فى ذلك الوقت إلا بالقدر الذى تلحظه عندما تقول لهم إنهم سيلقون حتفهم إذ هم ركبوا دراجاتهم البخارية فى سرعة مجنونة . أقول « فى ذلك الوقت » فما من أحد يستطيع أن يقدر بصفة مستمرة النتائج التى تبشر بها دعاية محدودة فالتلميذ الذى يصدم بخبر وفاة فرد بالسرطان يقابله مئات يقولون إنهم لم يشاهدوا واحداً ممن يعرفون من المدخنين قد مات بهذا المرض .

ولعله من اليسير عليهم من بعض النواحى أن يلهوا بالحالات التى تعتبر أقل وقوعاً . وهذا مايحدث للبالغين أيضاً فهؤلاء أعرف الناس بالمنغصات المزمنة التى تصاحب السعال والتهاب الشعب والزكام، فهى شائعة فى أسرهم وبين ظهرانيهم . وقد يكون هناك حائل عاطفى يحجب الواقع وهو أن كثيرين يقتلون أنفسهم بالسرطان من غير أية ضرورة ، وقد قالت لى طالبة ظريفة فى الصف السادس : « لابد للإنسان أن يموت بسبب ما ، فلم لايكون بالسرطان ؟ » . لقد كانت معنية بالأكثر بجواز أن يعيش المرء وهو فى سعال وضيق صدر ومع ذلك فهو فى عافية وسعادة بالغة لايحس معها بالفعل ضجراً أو مللا .

وقد قام الدكتور ف . م مارتن رئيس المحاضرين بقسم الصحة العامة

والطب الاجتماعى بجامعة أدنبرة بوضع تقرير عن فشل الحملة التى جردت ضد التدخين ، ألقاه فى مؤتمر جمعية الصحة الملكية فى أبريل سنة ١٩٦٢ ذكر فيه ضمن ماذكر أن فى نهاية الحملة ازداد عدد الساخطين على التدخين على اعتباره علة السعال والرشح وانقطاع النفس والتهاب الشعب على الرغم من أن منشورات الحملة لم تذكر هذه الأمراض على الإطلاق كما لم تتناول النشرات موضوع أثر التدخين فى أحداث السرطان بأسهاب يذكر ، فى حين أنه كان موضوع الحديث المنوط بالحملة . وعلى الرغم من أن الحملة لم تكن خاصة بالأحداث فقد كتب لها التوفيق (وقد نشرت اللانسيت التقرير برمته فى العدد الصادر فى ٦ فبراير ١٩٦٠) .

وهنا نجد تحديا أصيــــلا للقائمين بالدعاية ، فقد ظل الناس على الأقل منذ أيام جيمس الأول يبشرون بضرر التدخين وقد أيدت أبحاث طبية قيمة هذه الحقيقة ولكن قيام الدليل على صحة أمر واقع ليس كافياً ليكون هادياً للسلوك البشرى فمعرفة الشىء الذى يضرنا لا يمكن أن يحفزنا على نبذه آليا ،

وجدير بالذكر أننا إذا أمكننا إقناع كل فتى وفتاة بالعلاقة بين التدخين وسرطان الرئة حتى يقبلوا هذا الأمر عقلياً ضمن الحقائق المسلم بها والتى يتلقونها فى المدارس فإننا قد لا نصبح أكثر قربا من التأثير فى عاداتهم إذ لا يمكن أن يكون أساس قضيتنا من ناحية العصاب وحسب، فمعرفة الخطر على الصحة خطوة واحدة لا تستطيع بذاتها أن تزيل الضغوط الاجتماعية أو الضغوط النفسية فلا يمكن طرد التدخين من بيئاتهم .

وهل هناك عوامل أخرى ؟

إن المال هو أحد العوامل ذات التأثير البالغ مما جعل المجلس المركزى للثقافة الصحية يضع نشرة رائعة ترتكز على هذا الأساس فحسب حتى تبدو كأنها نبذة تعلن عن قضاء عطلة أسبوعين تحت شمس الرفييرا أو أسبوعين للتزحلق على ثلج جبال الألب أو لمشاهدة ربوع أوروبا كلها تكلف أقل من ٧٠ جنيهاً ، ففى ظهرها تقول النبذة إن عشرين سيجارة تدخن فى اليوم تكلف ٧٠ جنيهاً فى السنة كما تكلف تدهوراً صحياً يساوى أكثر من هذا بكثير ، فأيهما أفضل ؟ .

وبديهى أنه عسير على المعلمين أن يشددوا على نقطة تبديد المال إذا كان الآباء يعطون أبناءهم بسخاء ما يجعل الاقتصاد فيه أمراً لا أهمية له . كذلك أجور الشباب العالية نسبياً تجعل حجة المال أقل قوة إلا فى حالة ادخار الشباب للمال لغاية معينة أو بقصد الحصول على شىء يستهويهم كشراء جهاز تسجيل طويل الأداء .

وهيهات للصحة والمال ، مفترقين كانا أو مجتمعين ، أن يحولا دون التدخين فى أمة ما . فقد تكون الصحة والمال عناصر الجدل فيما يتصل بالأطفال والمراهقين ، غير أننا على أى حال لا نفرض جدلا لمجرد الجدل بل نحاول التعرض لعادة بشرية مضى على ظهورها بين الناس أكثر من ثلاثة قرون ونصف قرن . وإذن فما هى الاعتبارات الأكثر وجاهة والتى يجب مناقشتها إذا أردنا فعلا أن نغير موقف المجتمع من عادة مسلم بها من أمد طويل ؟ هذا مع الاستمرار فى إهمال موضوع الإدمان المستعصى الذى يفتقر إلى مساعدة الإخصائى .

وينبغى أولا تناول الاعتراضات الظاهرة وهى أن ثلاثة قرون ونصف قرن ليست بالزمن الطويل جداً ، وأن انتشار تدخين السيجار قد بدأ منذ

خمسين سنة أو أكثر قليلا ، تغيرت فى غصونها الحياة تغيراً جذرياً تناول المألوف من الأمور . ولا ضرورة لاستمرار شيء ولا لحتميته لأنه ظهر من مائة سنة، وإلا لظل النساء والأطفال يشتغلون فى مناجم المعادن، ولظل صغار الأولاد ينظفون المداخن ، وقام الجراحون بإجراء العمليات بدون تخدير وشنق الناس عقاباً للسرقة . لقد نبذنا مع القرون كثيراً من عاداتنا المستهجنة فغريب أن تبقى عادة التدخين ، إذ لم يعد من المستحيل على الناس أن يقرروا الامتناع عن إدخال الدخان إلى أجسادهم بعد أن نجحوا فى الإقلاع عن حرق الناس الذين كانوا يأمون الكنائس ذات العقائد المخالفة. كما أن سلوك الناس فى تبدل مستمر ، مثل ذلك استعمال الناس للشوك والسكاكين فى تناول طعامهم . كما تناقص البصق فى المحلات العامة ، وحرم تهارش الديكة . وعفا كثير من العادات الكريهة كاستنشاق السعوط ، ولهذا فأول شيء نقول به هو ما استهللنا به هذا الجزء من الكتاب ، وهو هل لابد من مرونة فى تناول المشكلة والتسليم بالفكرة القائلة إن النساء والرجال لم يولدوا وفى أفواههم سجاير ، وإنه ليس هناك للتسليم ببقاء عادة على اعتبارها أبدية وغير قابلة للتغيير .

فإذا سلم الإنسان مرة بأن التدخين ككل العادات الأخرى عرضة للنقد والتجريح بعوامل الزمن والموضة والمناقشة وجدنا السبيل لامتحان حقائق القضية التى توضح لا الأسباب التى تقنع الناس بالإقلاع عن التدخين ، بل الأسباب التى تمنعهم إصالة دون البدء فى التدخين .

وينبغى أن يكون الهدف هو اعتبار عدم التدخين قاعدة السلوك السوى لا الاستثناء . ويمكن عمل هذا بطرق كثيرة . ففى سنة ١٨٦٨ كانت السكك الحديدية فى انجلترا مطالبة بإعداد عربات خاصة للمدخنين

ثم تغير الوضع بالتدريج فأصبح غير المدخنين فأصبح غير المدخنين أقلية وعليهم أن يبحثوا عن العربات القليلة التى تخلو من المدخنين، ويمكن قلب هذا الوضع من جديد .

إن لندن أكثر مدن العالم إباحة للتدخين ورحابة به ، ففى موسكو ونيويورك وتورنتو وباريس واستكهولم مثلا ، يحرم التدخين فى النفق ، ويسلم الجمهور بذلك على أنه أمر طبيعى ، وينجم عن ذلك اختلاف هائل ليس فى الجو فحسب بل فى كمية المخلفات التى يتعين التقاطها ، وجدير بلندن أن تأخذ بهذا النظام على الفور(١) .

وقد أصبح عدد الحوانيت التى تطلب من عملائها عدم التدخين فى تزايد هائل ، ففى نيويورك مثلا ، أصبح هذا الطلب قاعدة ملزمة فى المتاجر الكبرى لتوقى الحرائق ولدواع صحية . ولاشك أن من أصحاب الحوانيت من يخشى إقبال عملائه إذا هم أصروا على منع التدخين فى الوقت الذى يبيحه منافسوهم . غير أن احتمال تنفيذ هذا الحظر بقوة القانون جدير بالاعتبار وذلك بالبدء بتحريمه فى المحلات التى تبيع الأغذية ، وهذا متبع فعلا فى السويد .

إن دوراً عديدة من دور السينما ترجو روادها الامتناع عن التدخين وليس هناك دليل على نقص هؤلاء الرواد بسبب هذا الرجاء . والتدخين ممنوع منعاً باتاً فى دور السينما والمسارح فى السويد وفنلنده وفرنسا والاتحاد السوفييتى وفى بعض أجزاء من أمريكا الشمالية . أما فى إيطاليا فهو ممنوع فى المسارح ومباح فى دور السينما . وهناك إجراء معقول فى

---

(١) بل ما أحوج الجمهورية العربية المتحدة أن تأخذ بهذا النظام على الفور وتنفذه فى دور السينما وعربات السكك الحديدية والسيارات العامة ، حيث لا يستنشق الركاب إلا هواء فاسداً مشبعاً بدخان قاتل . (المترجم)

بعض دور السينما الكندية ، فني تورنتو مثلا ، يسمح بالتدخين فى جو مخصوص حيث سعر المقاعد أكثر ارتفاعاً ، وتموجات الدخان أقل مضايقة للآخرين إلى أدنى حد ممكن .

ولم يبلغ تحريم التدخين فى سيارات الركاب وغيرها من وسائل النقل العامة فى انجلترا درجة الصرامة المتبعة فى معظم الدول الأخرى ، كما أنه فى وضعه الحالى ليس من المنطق فى شىء ، فليس من المنتظر أن يدخن الناس فى الكنائس . ولو أننا أشرنا فيما سبق أنهم كانوا فى القرن السابع عشر يدخنون ، كما أننا لا ننتظر من الشرطى أن يدخن فى أثناء نوبته فى الحراسة. وعلى الرغم من عدم السماح لأعضاء البرلمان بالتدخين فى قاعة البرلمان وفى الردهات الموصلة لها مباشرة فإنه ما زال عند مدخل مجلس العموم صندوق ملىء بالسعوط بصفة مستمرة . كما توجد بالطبع حجرة للتدخين معدة بطريقة ناقصة اجتماعية لأولئك الذين لابد لهم من التدخين مما يجعلها وكأنها لا يباح استعمالها بصفة عامة . وينبغى قيام كثير من المنظمات العامة والخاصة حيث لاتقوم صعوبة كبيرة فى وجه نشر هذه الفكرة ، وقد يقابل انتشار إعلان « ممنوع التدخين » بالامتعاض وبالتالى بالمقاومة ما لم يكن من الممكن أن يجد مدمن التدخين مكاناً آخر يدخن فيه تدخيناً عرضياً . فالفكرة هى أن يلاقى المدخنون شيئاً من المضايقة إذا كان لابد لهم من التدخين .

إن منع التدخين فى الأماكن التى يتجمع فيها الناس للعمل أو الترفيه مهم جداً ، إذ تبلغ المضايقة أشدها عندما يوجد إنسان لايدخن فى مكتب أو عربة سكة حديد ، وقد انعقدت فى فضائها سحب الدخان الأزرق ، بل أهم من هذا كله أن إباحة التدخين بصفة عامة يهدم كل محاولة لإقناع الشباب

بعدم التدخين ، فالأحداث غاية فى المنطق ، فليس من السهل دائماً أن يروا تبريراً لإنكار ذواتهم إذا كانوا يكرهون إكراهاً على استنشاق دخان غيرهم . مثل ذلك أمينة السر الشابة وهى فريسة مظاهر كثيرة من الضغط التى تضطرها إلى التدخين قد تشعر أن من المحتمل أن تتأثر صحتها بالتدخين بنفس القدر الذى تتأثر به عندما ينفث رئيسها الدخان فى وجهها وهو يملى عليها رسائله . وما من شك أن هناك أسساً علمية تفسر أن أذى الدخان الذى ينفثه المدخن أبعد أثراً من ذلك الذى ينفثه الآخرون حوله . غير أن المدخنين فى كثير من الأحوال أقل تسليما بهذه الأسس منهم بالتعليل الذى ينطق به خاطر الذين يستهويهم التـــدخين ، فهم يقولون أما وأن الضرر الصحى واحد فى الحالتين فإنهم يفضلون أن يمرضوا من الدخان الصادر عنهم وهم يجدون متعة فيه من أن يموتوا بالدخان الصادر عن غيرهم من غير متعة .

وبقدر الصعوبة التى يجدها الناس فى التمييز بين الدخان الصادر عنهم، وبين الدخان الصادر عن الآخرين ، يجد الناس نفس الصعوبة فى التسليم بخطر دخان التبغ وحده ، فى وقت يسمعون فيه مرة تلو مرة ، عن تزايد تلوث الهواء الذى يستنشقونه . فإذا كان التبغ هو المصدر الوحيد لتلويث الهواء وتوقف الناس عن التدخين مساهمة منهم فى ظهور المعجزة ، وهى ظهور الهواء النقى فجأة ، أصبحت مهمة الدعاية ضد التدخين أسهل وأيسر .

ولكن العكس هو الصحيح . ففى بلاد مثل استراليا حيث الهواء أكثر نقاوة ، وجد أن الإصابة بسرطان الرئة وما إليه من الأمراض المرتبطة به أقل ظهوراً بين غلاة المدخنين عما هو الحـــال فى بريطانيا . وهنا يقيم المدخنون الحجة — رغم عدم تمام حجيتها — بقولهم إنه لا جناح على الفرد بسبب التلوث الراهن فى الهواء تلوثاً كبيراً من إضافة هفة من دخانه

إلى ذلك الهواء ، ويخيل إلى أنه كان الأجدر بالإخصائيين أن يأخذوا مسألة تلوث الهواء بجدية أوفر مما يفعلون ، فلا فائدة من تكدير صفو الصغار بذكر أخطار التدخين فى الوقت الذى وقفت فيه قرارات « الهواء النقى » (١٩٥٦) دون تنفيذ ولا تطبيق دقيق . ولقد بلغ خلال خمس سنوات فقط عدد المنشورات التى أصدرتها السلطات المحلية ٢٩٤ منشوراً ، منها ٢٢٧ احتوت على أوامر قاطعة تحدد المناطق الخالية من الدخان . ولقد ورد فى تقرير لجنة بيفر سنة ١٩٥٤ بعد الكارثة التى نزلت فى ديسمبر سنة ١٩٥٢ ما أوضح بجلاء أن جو لندن الذى يكاد يكون كله مشحوناً بالقاذورات ، قد قتل عدداً من المواطنين ، كان كثير منهم بطبيعة الحال من المسنين وضعاف الصدر (ولعل التدخين سنين طويلة هو سر تفاقم ضعف الصدر) لكن الجماهير كانت تعتقد جازمة بأن القاذورات الصادرة عن المداخن ومحطات القوى هى التى أهلكت السكان . ولكن فى سنة ١٩٦٢ قدر مؤتمر اتحاد مفتشى الصحة أن ٨ فى المائة فقط من الجهد القومى فى ثمانى سنوات قد بذل فى سبيل توفير الهواء النقى .

فإذا أرادت حكومة أو مجتمع مسئول أن يبدى رأياً يسود روح الجماعة ، ويعتبر التدخين عادة قذرة وضارة بالصحة ولا يرجى منها أية فائدة ، وجب أن تعالج جميع مصادر الدخان وجميع أسباب تلوث الهواء ، ثم تتخذ وسائل أكثر صرامة وحزماً مما يكفله التشريع القائم اليوم ، والذى يسير متباطئاً وعفو الخاطر . كما ينبغى الإسراع بكهربة خطوط السكك الحديدية ، فمن العسير أن نقنع اليافع ، الذى لم يبلغ العشرين من عمره ويعيش فى قرية تقع فى طريق السكة الحديد ويرى ويلمس القاطرات وهى تلفظ بخاراً من جوفها ، بأن تدخين عدد من السجاير سيكون سبباً فى وقوع الكارثة . فالهواء

حول السكك الحديدية محمل بالقاذورات لدرجة ظاهرة ملموسة يطلق عليها اسم السخام ، فإذا كانت السلطة المختصة تبدو متساهلة أو متباطئة فى معالجة تلوث الهواء الخطير الذى يعيش الناس فيه مجبرين، فمن سقط الرأى أن يقال لهؤلاء الناس إنهم يختنقون بدخان سجايرهم .

وكان بسبب مثل هذه الحجج ، أن قعدت الجهود دون نجاح محاولة الإقلال من التدخين على أساس أنها حملة مستقلة ، إذ تفتقر أى حملة من هذا القبيل إلى أن تكون جزءاً من هجوم عام يتناول تلوث الهواء كائناً ما كانت مصادره أو أسبابه ، حتى يثبت فى عقيدة الرأى العام أن الهواء الفاسد ضار بالناس كالماء الفاسد سواء بسواء ، وأن الهواء النقى ضرورة ماسة كاللبن النقى ، وإلا ظل التحذير من التدخين وخاصة فى نظر الشباب ضرباً من التلون والتزمت والتحيز .

وهناك حقيقة أخرى لا تسعف ولا تساعد ، وهى إخفاق الفنيين إلى اليوم فى فصل العنصر الخطر فى التدخين ومعرفته على وجه التحديد ، فطالما أن أحداً لم يقطع بالعنصر الضار فسيظل بعض المتهكمين وهم يشككون فى مدى علم العلماء بما يخوضون فيه، وهذا غير عادل إطلاقاً(١).كما أن الشبان

---

(١) فى منتصف هذا العام (١٩٦٥) أعلن الدكتور وليم كار الأستاذ بجامعة تورنتو بكندا أنه أجرى أبحاثاً مع بعض العلماء فى معهد بالتينج أظهرت أول دليل على وجود علاقة عضوية كيمائية بين التدخين والإصابة بمرض السرطان وقال إن جميع نتائج الدراسات السابقة عن العلاقة بين التدخين والسرطان كانت مبنية على أساس الإحصاءات .

وأضاف كار : أن البحوث التى قام بها أثبتت وجود بعض المواد التى تسبب الإصابة بالسرطان بكميات غير طبيعية فى بول المدخنين الذين قد أجريت عليهم البحوث . وقد انخفضت هذه الكميات عندما توقفوا عن التدخين وازدادت ثانية عندما عادوا إليه . =

لا يقسطون. والراصدين أنفسهم على التدخين يقاومون، والناس وهم فى شك من تحديد طريقة فصل العنصر الضار يطعنون فى فائدة الطرق المختلفة التى يلجأ إليها فى تقليل الخطر كوضع مرشح (فلتر) فى طرف السيجارة. والحق أن مزيداً من البحث لفصل العنصر الضار ومعرفة ملامحه وصفاته كفيل بعرض قضية مقاومة التدخين عرضاً جاداً .

غير أن هذا سيكون عاملا مساعداً فحسب ، فالبشر لا يتجنبون الأشياء لمجرد أنها ضارة ، فالمسرات كانت على الدوام ، تمشى فى ركب الحماقة .

إن التنغيص الذى يلازم قذارة التدخين لا يؤثر على العادة إلا قليلا بشكل عجيب ، والسبب فى هذا أن أكثرية هائلة من نساء بريطانيا من المدخنات للدرجة التى تجعلهن يتسامحن فى القذارة المنفرة التى تلوذ بمنافض السجاير والستائر المشبعة برائحة الدخان . ولعل من أضعف الحجج إلزاماً وتقبلا ، التغنى بالنظافة البالغة التى تسود البيت الذى يكون مصدر الإلهام فيه نساء مجنونات بالنظافة لا يعرفن الاستقرار ، ولا ينبض قلبهن بالحب ، كالسيدة أوجور برتشارد فى رواية أندر ميلك وود(١) التى ترجو الشمس أن تمسح حذاء زوجها قبل أن يدخل بيتها الطهور الموحش ، ولهذا فجدير

= وقال كار : إن التدخين يمنع إفراز الأنزيمات التى تيسر هضم وامتصاص بعض المواد الكيمائية النافعة الموجودة فى الطعام مما يؤدى إلى تجمع هذه المواد التى يمكن أن تؤدى إلى الإصابة بالسرطان فى ظروف معينة .

فلعل هذه البحوث وأمثالها تبدد تشكك الكلبيين من أنصار التدخين وتهدم حججهم .
(المترجم) .

(١) Under Milk Wood

بالمتحمسين أن يسيروا على حذر فمن العبث أن تصر مضيفة على القول بأن طهوها الشهى أفضل تذوقا عند من نظفت حلوقهم رغم ما فى هـذا القول من صدق . فإقلاق الضيف أو إغضابه يجافى آداب الضيافة ويقينى أننا سنظل نرى تلك المنافض وهى تفرغ وتلك الأطباق وهى تنظف إلى مالانهاية ، وقد يكون أقصى ما يمكن أن نفعله أن نمتنع عن تقديم السجاير لزوارنا وهذا يشعرهم على الأقل أننا لانتوقع منهم أن يدخنوا .

على أن الذين لايجدون فى التدخين أى خير لا يكونون على الأرجح أقدر الدعاة، كما ينبغى أن لايحسوا بتبرير الذات. فإحدى عناصر نشوء عادة التدخين أن البالغين يعتبرونه ضرورة اجتماعية وتسلية مستظرفة وإثباتا لهويتهم دون الكثيرين من المعارضين الذين يتصفون بأشكال مختلفة من الزهد والتقشف الذى لايحسدون عليه ومن غير صحة قوية دائماً. إن المواطن الذى يريد أن ينصح الناس بعدم التدخين يتجاهلونه بالسهولة التى يتجاهلون بها من يبشرون بوجوب عدم أكل اللحم وشرب الخمر والاختلاف إلى دور السينما فى يوم الأحد . وما من شك إنه ليس هناك مايمنع ذوى العقائد الراسخة من البحث فى إقناع الآخرين فنحن جميعاً نحاول التأثير على الآخرين فى معظم الأحوال بشتى الطرق والوسائل . وما الدعايات السياسية إلا مثل واضح على أنه يخيل إلى أن هناك فارقا بين حملة الامتناع عن التدخين التى نفتقر إليها الآن وبين التحريم الأدبى الذى تفرضه بعض الجماعات فى هذه الناحية وغيرها من ميادين النشاط . . إن الممتنع عن التدخين وشرب الخمر والذى يقدس يوم الأحد مثلا له فيما يقرره بواعث خلقية قوية وهذ مايروق الآخرين . لكن التقدم للجماهير بصفة عامة يطلب الإقلال من التدخين على اعتباره عيباً خلقياً يحتمل أن لا يروقهم .

وفى رأيى أنه ينبغى ألا يلعب التأويل الخلق دورا فى هذا الموضوع فليس هناك مايمنع الشخص الذى يهاجم التدخين من الناحية الخلقية من عرض نظريته — باستثناء عدم احتمال النجاح . ومع هذا فمثل هـــذا التناول من جانب الحكومة لايحتمل فأولو الأمر منا يجوز لهم أن يمنعونا من ارتكاب جريمة ولكن لايجوز لهم أن ينكروا علينا خطايانا .

غير أن على الحكومة تبعة تنظيم السلوك المضاد والحد منه وعلاج ما يضر الصحة.فليس لأى فردأن يبقى ماخورا تنبعث منه الروائح الكريهة بدعوى أنه ملك له وأنه حر فيما يملك ، كمالا يستطيع شخص أن تكون له مدخنة تلفظ الدخان فى منطقة خلت من الدخان . وعلى نفس هذا القياس ينبغى أن لا ينبعث دخان من إنسان وخاصة فى الأماكن الضيقة التى لابد للآخرين من استعمالها والتواجد فيها .

إذن فماذا يمكن عمله ؟ قد يكون لبرنامج قصير الأمد مادته التحذير والتخويف أثر وقتى لايلبث أن يزول إذا لم تسانده جهود متباينة مستمرة ترسى فى أذهان الناس فكرة إن التدخين ليس ضرورياً ولاطبيعياًولامحبباً ولا مفيداً . إن التحريم البات الشامل كما حاوله هتلر باسم الصحة لا يكتب له نجاح طويل العمر (كان التدخين قبل الحرب محرما على الأحداث فى برين وهم فى سن دون الثامنة عشرة) . ولكن على الحكومة والإدارة المحلية أن تتوسع فى تحديد الأمكنة التى لايسمح فيها بالتدخين،ولتكن أول هذه الأمكنة السكك الحديدية التى تجرى تحت الأرض فإن ذلك لا يجعل حياة غير المدخنين محتملة فحسب بل يساعد على هدم الفكرة الشائعة بين الجماهير وهى أن الدخان جزء من البيئة .

وينبغى ربط هـذا بحملة أكثر نشاطاً وقوة عن تلوث الجو فى جميع مظاهره، وفى الوقت نفسه يبذل جهد بالغ لاكتشاف من يدخنون ولماذا يدخنون، كما ينبغى عدم التقتير بالمال والموارد على العيادات التى تفتتح الآن لمدمنى التدخين . كما أود لو حرم الإعلان عن التدخين بكافة أنواع الإعلان كما هو الحال فى إيطاليا بقصد التجربة لمدة ثلاث سنين مثلا وشغل المساحة نفسها وبذل نفس المال للإعلان عن أخطار التدخين واتباع نفس الطريقة التى جرى عليها المعلنون عن التبغ فى استغلال الشبان من معبودى الجماهير فى قطاعات عديدة وهم يحيطون السجاير بالرومانتية فى جميع المناسبات التى تشوق وتروق ، إذ يخيل إلى أن المجتمع سيفتقر إلى مساعدة شباب مشهور من غير المدخنين ولا أعنى أن يقتصر فى ذلك على الإعلان المباشر فحسب فلا بد من تراكم المؤثرات فى خواطر الناس إذا اعتاد الشباب منهم مشاهـــدة الأشخاص الذين يعجبون بهم ويتخذونهم مثلا عليا لهم فى التلفزيون والصحف والمجلات دون أن تطل السجاير من بين شفاههم . ولو كنت صاحب الأمر لحرمت التدخين على المسارح وقاعات المحاضرات إلا فى الحالات التى تستلزم حبكة تمثيلية أو إظهار السمات الخاصة ، فمن السخرية مثلا محاولة عرض دور شرلوك هولمز أو ميجريت الدرامى بلا غليون ، ولكن الأمر لا يستلزم فى معظم الأحوال أن يظهر ممثلو الدراما وهم يدخنون فيستطيع هملت أن يبقى ساعات طوال بلا تدخين كما ينبغى التزام هذه القاعدة طيلة برامج التلفزيون. إذ ما هى الفائدة من الدعاية عن فضائل الامتناع عن التدخين إذا ما شاهد الأطفال والديهم فى العرض التلفزيونى «الاعتماد على العقل» Brains Trust وهم طيلة الوقت ينفثون الدخان ؟ صحيح أن القائمين بأداء الأدوار يجدون فى مداعبة السجاير بأصابعهم أو عض الغلايين بأسنانهم عوناً لهم

على هذا الأداء ولكن عليهم أن يقوموا بالأداء بدونها، فهى بالذات سبب من أسباب خلق عادة التدخين على اعتباره أمراً طبيعياً وهو ينبغى هدمه.

إن بعض الآباء يرون أن من الأفضل عدم النهى عن التدخين إذ يرون أن هذا قد يشجع أولادهم على التدخين سراً أو خارج المنازل وهم مع هذا الرأى يأملون أن يتغلب أولادهم على هذه البدعة كما يرون أن الإقلال من الخوض فى موضوع التدخين يؤدى إلى نتائج أحسن فالشباب المتفتح من الذكور والإناث يرون باستنتاجهم « أن ليس فى التدخين ما يضير » .

وواضح أن المؤثرات المنزلية والمدرسية تتفاعل فيما بينها كما تتفاعل المؤثرات العامة التى أشرنا إليها فيما سبق . غير أن من الأهمية البالغة أن لا تكون معارضة التدخين عن طريق حشرها فى أذهان الأحداث ضمن الآراء المتحيزة التى تتناول سلوك الإقلاع .

كما تستطيع الحكومة إلى جانب هذا أن توقف توزيع أدخنة أو سجاير رخيصة الثمن لقواتها المسلحة، فلقد كان هذا الإجراء من زمن بعيد بمثابة أسلوب لبق لتعويض الجنود عن أجورهم الزهيدة ولكن إعطاء هذا البدل نقداً لهم قد أصبح من الخير بصفة عامة على أن يبدأ تطبيق هذا على غير المدخنين من الجنود فيعطون البدل عن التدخين نقداً .

ويخيل إلى أنه لا يرجى خير كثير من رفع أثمان السجاير، فالمدخن الذى لا يحيد عن عادته إنما يلجأ إلى استقطاع الفرق من ضروريات أخرى ويلجأ المتقدمون فى السن إلى الإقلال من المتعة التى يجدونها فى التدخين كما أن الشباب ذوى الدخل الكبير لا يتأثرون برفع الأسعار

إلا قليلا فقد اعتادوا بذل الكثير فى سبيل ملاذهم. فإذا أريد جعل نفقات التدخين بحيث تصبح مما يمتنع على الناس فلا بد من زيادة الأسعار زيادة هائلة تشكل تعسفاً اجتماعياً تجعل الناس أن يستنتجوا أن التدخين مع الأسعار السائدة مضيعة لأموالهم ومن الخير أن يقلعوا عنه .

ولعل حظر التدخين فى الأمكنة العامة بالقدر المعمول به فى الدول الأخرى، والإقلاع الكامل عن جميع أشكال الإعلان لفترة معينة بقصد التجربة والقيام بحملة قوية مدعمة لتوعية الجماهير جميعاً، والمحاولة العامدة من جانب الآباء والمدرسين والأطباء وغيرهم من ذوى النفوذ على الآخرين. ليكونوا مثلا ضمنياً صالحاً ، وإلغاء تموين القوات المسلحة بالسجاير الرخيصة ، كل هذه جميعاً إلى جانب مقاومة تلوث الهواء بصفة عامة فى جميع الميادين ضرورات لا غنى عنها .

وإننى لا أعتقد أن انتزاع السيجارة من وجه البشرية بالأمر المستحيل. ويتعين أن تكون هذه العقيدة ينبوع كل جهاد فنتقدم تدريجياً ولو إلى الحد الذى وصل إليه روبرت بورتون (١٥٧٧ — ١٦٤٠) فى تشريح الكآبة « The Anatomy of Melancholy :

« التبغ ذلك المقدس النادر . والتبغ المتفوق فى الجودة إلى الحد البالغ يتغلغل إلى ما وراء البنكرياس ، شراب الذهب ، وحجر الفلاسفة ملك لسائر الأدواء ـ قد أساء معظم الناس استعماله فى سوقية كما يفعل اللحامون بالجعة . إنه الطاعون والأذى . إنه مبدد عنيف للسلع والأرض والصحة إنه التبغ الشيطانى الجهنمى الملعون، إنه مدمر الجسم ومتلف الروح .

كيف نقف التدخين

بقلم
كريستوفر وود

قد تناول الجزء السابق من هذا الكتاب موضوع نشوء التدخين على اعتباره عادة اجتماعية مسلم بها بل ومحترمة أيضاً . إن مشكلة تغيير عادة التدخين تتناول المدخن نفسه والمجتمع الذى يعيش فيه . وربما كان من الأسهل تقدير الدور الذى يلعبه هذان الطرفان فيما بينهما إذا ما ربطنا بين هذين الطرفين وبين عادة تعاطى مخدرات أخرى معروفة بين الناس بتأثيرها ونتائجها، فمجتمعنا الراهن لا يقر بصفة عامة تعاطى الخمور سواء كان ذلك بشربها أحياناً إلى درجة السكر أو بمعاقرتها بصفة مستمرة ولزمن طويل كما أن الرأى العام يعضد أى محاولة تهدف إلى مساعدة الفرد على وقف إفراط الشراب كما أن فى حالة تعاطى المخدرات كالأفيون لا يهب الرأى العام لمنع هذه العادة فحسب بل ويقف القانون بالمرصاد لتحريمها . وليس التفريق بين المقبول وغير المقبول والمحرم شرعاً مسألة عامة من ناحية الزمان أو المكان ، فهناك أكثرية من المجتمعات الكبيرة كالمسلمين وأقلية من المجتمعات الصغيرة كالمورمون (١) لا يجيزون التدخين ، بينما هناك أقوام تجد بينها من يرى تعاطى الأفيون أمراً عادياً ومقبولا .

هل التدخين عادة أو إدمان ؟ .

إن كلمتى عادة وإدمان عرضة إلى حد ما للاستعمال فى شىء من عدم

---

(١) المورمون فئة من المسيحيين فى أمريكا يدعون الى تعدد الزوجات وبدع أخرى أنشأها جوزيف سميث فى عام ١٨٣٠ (المترجم)

الدقـــة ولو أن كلمة « عادة » تصلح لتعريف الشخص الذى يدخن فى مناسبات معينة فقط كصحبة الأنداد أو بعـد الوجبات ، فلا يحس ضيقا إذا حيل بينه وبين هـذا التصرف . أما كلمة إدمان فتطلق على تصرف الشخص الذى يؤثر التدخين على الأكل ويصر عليه وهو مصاب بنزلة برد والذى يشتهى السجاير إذا أعوزته . وتتفاوت الدرجات بضرورة الحال بين من يدخن أحيانا وبين المدمن المصر على التدخين كالتفاوت بين يشرب زجاجة نبيذ أوجعة بين الفينة والفينة وبين السكير المدمن الذى لا يفيق حتى يشرب ، فأولئك الذين يدخنون عشر سجاير أو أقل فى اليوم نادراً ما يكونون مدمنين. والذين يدخنون ثلاثين سيجارة أو أكثر عادة ما يكونون مدمنين ، غير أنه يلوح أن درجـــة الإدمان ليست نسبية مباشرة لتدخين عدد من السجـاير فقد لوحظ أن أشخاصا كانوا يدخنون أربعين سيجارة يوميا لمـدة سنين عديدة استطاعوا لدهشتهم أن يتوقفوا عن عن التدخين بجهـد قليـل ملحوظ وبدون ظهور عواقب ما . فى حين أن أشخاصا كانوا يدخنون عشر سجاير أو خمســة عشرة سيجارة فى اليوم عانوا ضيقاً شديداً فى الكف عن التدخين وظلوا مدة طويلة بعد ذلك يحنون له . ولعـل الصعوبة التى يعانيها آخرون فى الإقـلاع عن تدخين سيجارة أو اثنتين فى اليوم لا يقوم دليلا على وجود إدمان عقارى بل توضح كيف يمكن أن تتغلغل العادة فى النفس .

إن عادة تدخين السجاير هى التى تعنينا على وجه خاص . لقد استبان فى القسم الأول من هذا الكتاب أن تدخين غليون أو سيجار لا يضر المدخن نسبياً ولكنه على الأرجح مما يضايق الآخرين . وإنه ليلذ نسبياً

لمن يدخن عددا من السجاير يومياً أن يدخن عوضا عنها سيجاراً أو غليونا بقصد واحد وهو أن يخطو إلى منتصف الطريق نحو الإقلاع عن التدخين نهائياً . وسنتناول فيما بعد إمكان فرض ضريبة متفاوتة تجعل تدخين السيجار والغلايين أقل كلفة من السجاير ، وقد تناول فلتشر فى وضوح فيما سبق موضوع الصعوبة العملية التى تواجه جعل السجاير أقل ضرراً عن طريق وضع مرشح (فلتر) أو استبعاد عناصر مخبئة منها ، وأشار إلى أنه لابد من مضى عشرين سنة أو أكثر قبل أن تتجمع الأدلة التى تزكى فائدة القيام بهذه الخطوات . ويعنينا فى هذا الجزء من الكتاب تناول المشكلة الراهنة وهى كيف يوقف تدخين السجاير بشكل قاطع .

يمكن تغيير عادة تأصلت عن طريق تغيير البيئة أو بالتصميم الشخصى فالحضرى الذى اعتاد حمل ساعة فى جيب صدرته وانتقل إلى منطقة استوائية قد يبرح به الحر حينا فينتزع عنه صدرته ويجد عندئذ أن لا مندوحة من شراء ساعة يد يستعملها فى يسر وبدون مضايقة . وقد يعتزم الرجل الذى يلبس قبعة طرية مريحة أن يستعيض بها قبعة ذات قالب فلا تكون مريحة عند اللبس وتبدو للناظر الذى لم يألفها مدعاة لشىء من السخرية ، غير أنه ينجح بتصميمه على إحداث هذا التغيير .

وبنفس الطريقة قد تتغير عادات التدخين ، إما لأن البيئة الاجتماعية تحدث تأثيرا وإما لأن الفرد هو الذى يبت فى الأمر . وتغيير العادة فى الحالتين ليس فى كثير من الملابسات بالأمر السهل وليس عملية منطقية . فالتسليم بالحجج القائلة بوجوب وقف عادة ما لا يعنى تصميما لعمل هذا . ومن هنا كانت أهمية التأثير المتبادل بين التصميم الشخصى والضغط الاجتماعى .

إن المجتمع الراهن يسمح بالتدخين الكثير أو القليل للناس من جميع الأعمار من الثانية عشرة فما فوق (بل ودون ذلك فى أحوال كثيرة) وفى معظم الأمكنة بما فى ذلك فراش النوم ووسائل النقل العامة والسينما وفى جميع الأوقات حتى فى أثناء مباشرة العمل وتناول الواجبات . ومن الإعلانات ما يوحى بما يقلب أفكار الناس فنسلم بأن إنفاق جنيهين فى الأسبوع (١٠٤ جنيهات فى السنة) فى التدخين أمر معقول ولذلك فإن الجهد الذى يفتقر له الفرد ليبت فى أمر خروجه على إجماع الجماعة كبير جداً .

وتواجه الداعين فى الوقت الحاضر مشكلة من طراز « الكتكوت والبيضة » — وليس من المحتمل أن يتخذ المجتمع أية خطوات كبيرة نحو الإقلال من ممارسة التدخين حتى يتزايد عدد الذين لا يدخنون وحتى إذا تم هذا فسيظل من الصعب على الأفراد مقاومة عادة يداوم المجتمع على التسليم بها .

وصعوبة تغيير العادات أمر معروف فى ميدان الطب الوقائى فى الوقت الحاضر ، ففى العهود الماضية كانت تظهر أمراض مثل الكوليرا والتيفويد والطاعون يمكن تناولها بعلاج البيئة وذلك بتنظيم مورد مياه الشرب وجهاز المجارى وطريقة جمع الفضلات . وكانت هذه الإجراءات لا تتطلب من الجمهور بصفة عامة إلا قليلا من الوعى والتعاون نسبيا . ولهذا نادرا ما كانت هذه الإجراءات عقبة . فى حين أنه يمكن مقاومة أمراض أخرى كالجدرى والدفتريا والتيتانوس والحصبة وشلل الأطفال أخيرا — كلها أو معظمها على أى حال — وذلك بتعاون أفراد المجتمع تعاونا صادقا إلى حد أنهم يعرضون أبدانهم للحقن باللقاحات فى مناسبات مختلفة غير أن أمراضا كمرض شرايين القلب التاجية والتهاب الشعب وقرحة المصران الاثنى عشر وسرطان الرئة وأشكال مختلفة من الأمراض العقلية

— وهى فى الوقت الحاضر تدخل فى نطاق أمراض مقعدة وقاتلة — يمكن التأثير فيها لو أن أفراد المجتمع راغبون رغبة صادقة فى تغيير بعض عاداتهم فى الأكل والرياضة والتدخين والعمل حتى لتتبدل — فى واقع الأمر — حياتهم من بعض نواح هامة .

وليس هناك طريقة بسيطة للتغلب فى فترة قصيرة من الزمن على المقاومة المضاعفة التى تساور المجتمع والأفراد كما أنه ليس من المرغوب فيه فعلا أن تتم التغييرات التى من هذا القبيل لجأة وعلى عجل ، فلعل من الأفضل أن يضاف إلى قائمة ما يقبله المجتمع شىء من مساوىء التدخين وذلك لإذكاء جهود الأفراد الذين يحاولون مخلصين التوقف عن التدخين ويتزايد عدد المقلعين عن التدخين وترجح كفة المقبول وعندئذ تتابع الجهود فى حزم أشد وعزم أقوى .

وفى الواقع قد تغير موقف المجتمع فى البضع السنين الأخيرة تغيرا طفيفا قد يكون أكثر وضوحا منذ أن نشرت كلية الأطباء الملكية فى مارس ١٩٦٢ تقريرها « التدخين والصحة » . وقد جاهر بالقول منذ سنين نفر ممن كانوا يفكرون فى الإقلاع عن التدخين فى معرض الكلام عن أخطار هذه العادة « إذا كان التدخين عادة مرذولة وبهذا القدر من الخطورة فلماذا لا تفعل الحكومة شيئاً ما بهذا الخصوص ؟ » واستنتاجهم هذا مبنى على أن عدم قيـــام الحكومة بعمل ما يرجح عدم صحة ما يقال لهم .

ولم تفعل الحكومة إلى الآن شيئاً بناء تماما ولكن وزراء الصحة المتعاقبين بدأوا وهم مكرهون يدرسون فى بطء ثم أصبحوا أكثر جرأة فسلموا فى سنة ١٩٥٤ « بصلة التدخين بسرطان الرئة » . وفى سنة ١٩٥٦

باتوا يقولون « بالعلاقة » بين الاثنين . وفى سنة ١٩٥٧ سلموا بالنتيجة التى وصل إليها مجلس الأبحاث الطبية وهى .

« إن التفسير الأقرب إلى المعقول للزيادة الهائلة جداً فى عدد الوفيات بسرطان الرئة بين الذكور فى ربع القرن الماضى هو أن جزءاً كبيراً منها سببه تدخين التبغ وخاصة تدخين السجاير بكثرة » .

ولكن روح المضاء كانت فاقدة وما اتخذ من الإجراءات كان تافها لا يذكر . وعندما نشر تقرير الكلية الطبية الملكية صرح وزير الصحة فى مجلس العموم أن الحكومة قد اقتنعت عن عقيدة بأن التقرير قد أوضح عن يقين وبشكل قاطع حاسم قيام الصلة بين التدخين وسرطان الرئة وتزايد تعرض الصحة العامة للخطر بسبب التدخين . وقال لورد هلشام فى مجلس اللوردات عند عرض الموضوع للمناقشة .

« إننا نعلم كبشر يعنيهم الأمر أن تدخين السجاير كما هو حاصل اليوم يسبب سرطان الرئة فى كل قطر ومكان حيث تدخن السجاير . ومهما كان ما نفعله أو ما لا نفعله ينبغى أن نتصرف على ضوء اعتقادنا هذا وألا تشغلنا البحوث عن هذه الحقيقة الراهنة وإلا فإننا نخدع أنفسنا . ونعرض الآخرين للتهلكة .

إننا لا نستطيع أن نضلل أنفسنا بتفسير آخر قد استبعد أو يفرض نظريات ربما كانت صحيحة ولكنها لا تناقض ما ذكرت » .

وقد تناولت جميع وسائل النشر كالصحف والتلفزيون هذا الموضوع فى استفاضة لم يسبق لها نظير فانخفضت مبيعات السجاير بنسبة ١٢ ٪ وتدهورت أسهم التبغ .

ولكن نظراً إلى الفائدة المالية من صناعة التبغ وإلى حصيلة الإعلان فى الصحف والتلفزيون فلا عجب إذا هبت صناعة التبغ لتحارب هـذه التقارير كما وقفت بعض الصحف فى بعض المناسبات من ورائها حليفة لها فى هذه الحرب .

ومن الأمثلة على مثل هذه المواقف الخاسرة أن ظهر خطاب فى جريدة « التايمز » فى فبراير ١٩٥٦ تحت عنوان « التعرض لسرطان الرئة تساءل فيه كاتبه بالآتى : « كثيرون من أصدقائى ممن بلغوا الأربعين راغبون فى الإقلاع عن التدخين اليوم لو أنه قدم لهم ما يؤكد أنهم بإقلاعهم عن التدخين يقل فعلا تعرضهم لسرطان الرئة فإذا كان هناك من يستطيع الإجابة عن هـذا السؤال فقد يكون من المستطاع إقناع ألوف ممن بلغوا بهجر السيجارة » .

عندئذ أرسل بروفسور برادفورد هيـل ودكتور دول إلى المحرر بالمعلومات التى طالب بها بالقول « إن خطر التعرض لظهور سرطان الرئة عند من بلغوا سن الأربعين يقل فعلا عند إقلاعهم عن التدخين » ولكن جريدة التايمز لم تنشر هذا التصريح الذى ظهر بعد ذلك بقليل على الصفحة ٥٠ من المجلة الطبية البريطانية عدد ٣ مارس . ولعل محرر التايمز كان لا بد مفسحا المكان الكافى فى جريدته لهذا الرد لو أنه كان يتضمن ألا ضرر من مداومة التدخين .

ولما نشر تقرير كلية الأطباء الملكية هونت افتتاحية التايمز من شأنه ولم تنشر الخطابات التى أرسلت إلى المحرر عقب ذلك مباشرة بل أهملت تحقيقا صحفيا قام به أحد مراسليها بشأن ما تقوم به إحدى العيادات التى تعالج عادة التدخين .

وقد أيدت حرب الصمت التى التزمتها جريدة التايمز ظهور مقالات فى صحف يومية ذائعة الانتشار اعتمدت فيما كتبته على أسس خاطئة ولما أرسلت لها تصحيحات لهذه الأخطاء تناولتها تلك الصحف فى تراخ وعدم اهتمام لا يسر .

وقد توقف عدد من الناس عن التدخين عقب نشر تقرير كلية الأطباء الملكية والتعقيبات التى نشرت عنه، ولكن الناس ما لبثوا أن عادوا إلى التدخين فلم تتعد درجة هبوط المبيعات ٦ ٪ وعادت أسهم التبغ إلى مستواها السابق تقريباً .

وعلى الرغم من العناية التى أولتها وسائل النشر للموضوع فإن كثيرين لم يقتنعوا بالإقلاع عن التدخين غير أن كثيرين قد تفتحت بصائرهم على الخطر الناجم عنه وضعفت الحجة التى تقول « لما كانت الحكومة لم تفعل شيئاً بخصوص التدخين فهو لا يمكن أن يكون ذا خطر » .

الاتصال الفردى :

وإذن فكيف السبيل إلى معالجة الفرد الذى يراود نفسه على الإقلاع عن التدخين ؟ هناك نقطة واضحة وهى أن المنع القهرى إبان الإقامة فى مصحة مثلا مع تسليم المجتمع بعادة التدخين لا يؤدى إلا إلى تأثير مؤقت كما أن من ضيعة الوقت والجهد أن يلقن المدخن « كيف » يبطل العادة إذا لم يقدم له السبب المقنع الذى يحفزه على الإقلاع عنها . إن الرغبة المبهمة فى الإقلاع عن التدخين شائعة بين المدخنين ولكنها لا ترقى إلى العزيمة الصادقة فى حين أن تحويل هذه الرغبة المبهمة إلى عزيمة صادقة هو أهم خطوة فى هذا السبيل، فالعزم الصادق والتصميم الأكيد يجعل « كيفية إبطال التدخين بوسائط كاستحلاب أقراص النعناع ووضع أربطة مطاطية ، واستعمال أشباه السجاير وما إلى هذه تصبح أمورا ذات أهمية ثانوية .

إذن كيف السبيل إلى تقوية الرغبة فى وقف التدخين ؟ الأمر يختلف بين فرد وآخر حيال مدلول كثير من الحجج ، فالشخص المصاب بسعال مزمن مثلا بعد برئه من التهاب رئوى قد يقرر الإقلاع عن التدخين لاعتبارات صحية ، فى حين أن الفرد الحائر الذى يتلمس السبيل إلى فك أملاكه المرهونة ضمانا لديون عليه قد يكون أكثر تأثرا بالاعتبارات الاقتصادية .

ومع هذا فللمدخنين جميعاً ميل ظاهر إلى التعامى عن الاعتبارات الشخصية وإلى التماس المبررات للتدخين .

الحجج الصحية لوقوف التدخين :

كثيراً ما نسمع شخصاً يقول « أنا أعرف الخطر الذى يهدد صحتى إلا أن لهذه المخاطرة ما يسوغها ويعادلها » فإذا كان هذا القول صحيحا وجب قبوله فلكل إنسان الحق فى اختيار نوع المخاطرة التى يتعرض لها مهما كان خطرها إلا أن هذه العبارة تعنى فى واقع الأمر ما يأتى « إننى أشعر بشعور كريه ونذير سوء يهتف بى أن التدخين ضار بصحتى ولكننى أميل على الأرجح إلى عدم التفكير فيه » ويمكن مع بعض هؤلاء الناس اللجوء إلى التمويه فيسألون أن يوضحوا شخصياً ماهية الخطر الذى يتخيلون وقوعه لصحتهم وعندئذ يسهب البعض كثيراً فى التعبيرات الشخصية . إن الحقيقة السافرة وهى أن ٢٣٠٠٠ شخص يموتون كل سنة فى الجزر البريطانية بسرطان الرئة كثيراً ما تفشل فى التأثير على الفرد فإذا قيل له إن معناه موت مصاب واحد كل ٢٥ دقيقة وإن هذا العدد يعادل أربع مرات عدد الذين يموتون بسبب حوادث الطريق . عندئذ يكون هذا الايضاح أقرب إلى الفهم والاستيعاب، كما أن النسبة ١ : ٨ وهى نسبة الموت بسرطان الرئة بين من يدخنون ٢٥ سيجارة فأكثر فى اليوم يمكن تقديرها حق قدرها إذا أقيم القياس

الآتى : — إذا وقفت مضيفة على سلم الطائرة ترحب بركابها بقولها « إننا سعداء بسفركم معنا . إن طائرة واحدة فقط هى التى تتحطم بين كل ثمانى طائرات من طائراتنا . فكم من المسافرين يعدلون عن السفر بهذه الطائرة ويتجهون اتجاها آخر ؟ وقد يرون القياس الذى تقدمه لعبة الروليت الروسية فالرجل الذى يدخن ٢٥ سيجارة أو أكثر فى اليوم يتعرض لنفس الخطر فى الفترة بين سن الثلاثين والستين كالرجل الذى يشترى مسدساً له خزنة تسع ٢٥٠ طلقة وضع فيها طلقة واحدة حية . وفى كل يوم عيد ميلاد له يلف خزنة المسدس ويصوبه إلى رأسه ويشد الزناد . ولعل إحدى الصعوبات فى إدخال هذه الحقائق فى روع الناس هى أنه رغم ما أوضح فى صدر هـذا الكتاب عن انتشار سرطان الرئة وسرعة فتكه بالناس نسبياً كما لو كان وباء فإن كثيرين ليس لهم عهد به فى أسرهم وبين أصدقائهم .

ولعل هذه الصورة تتعارض مع صورة مرض التهاب الشعب المزمن المعروف للناس جميعاً فهو مرض يطول أمـده ويموت المصاب به بعـد سنين طويلة من الآلام غير أن معظم المدخنين يحتفظون بالتعبير « التهاب الشعب المزمن ويطلقونه على عسر التنفس البالغ الذى يظهر على السنين وهم فى ذلك يجهلون أن التهاب الشعب المزمن إن هو إلا آخر طور من أطوار مرض قد يرجع إلى عشرين سنة خلت ظهر مع سعال بلغمى كل صباح بلا انقطاع ،وقد يكونون أنفسهم ضحية له ولـكنهم يؤثرون أن يطلقوا عليه اسما مزوقا هو « سعال المدخنين » .

إن السهولة التى يقبل بها الناس فكرة العلاقة بين المرض وتلوث الجو بدخان المداخن أو أبخرة آلات الديزل تتناقض تناقضاً مع كراهيتهم للتسليم بعلاقة المرض بتدخين السجاير فهم يقولون « عليهم » عمل شىء لتلويثه

الهواء » وعلينا » عمل شيء لتغيير عادة التدخين. صحيح أن أهل المدن أكثر تعرضا لسرطان الرئة والتهاب الشعب ولكن الفارق بين الحضر والريف أقل بكثير من الفارق بين التدخين وعدم التدخين . ومن المحتمل كذلك أن يكون لدخان المدن ودخان السجاير أثر تراكمى ولهذا يتعين على الشخص المعرض للخطر بسبب إقامته فى المدن أن يمتنع عن التدخين بتاتا حتى لا يتحالف عليه الخطران. صحيح أن الأبخرة السوداء الكريهة الرائحة التى تتصاعد من سيارة ديزل سيئة الصيانة تضايق الناس إلى أبعد حد إلا أنه لم يثبت بصفة قاطعة أنها مصدر خطر مباشر فالميكانيكيون فى الجراجات وجنود المرور فى مدينة لندن ، وهم أكثر الناس تعرضاً لهذا الخطر — إن وجد — لم تتجاوز إصابتهم بسرطان الرئة الحد المقرر .

إن وصف الدور الذى يلعبه التدخين فى هذه الأمراض أو فى أمراض أخرى كتصلب شرايين القلب والسل والفتق وقرحة المصران الاثنى عشر والتعبير عنها بتعابير شخصية يقدرها الشخص الذى يعنيه الأمر ليس له مايبرره إلا إذا وجد العلاج . وهناك فى الواقع أدلة كافية لتسفيه وجهة النظر الشائعة التى يعبر عنها القول » وبعد فقد فات الأوان الذى أستطيع أن أعمل فيه شيئا بهذا الخصوص » فالحقائق تشهد أن خطر التعرض لسرطان الرئة يقل بدرجة مذهلة عند من يقلعون عن التدخين بالقياس إلى من يستمرون فيه كما أن تحسن أعراض التهاب الشعب مذهل فى أغلب الحالات وقد يحتمل فى الحالا المبكرة بعد الإقلاع عن التدخين أن يشفى المصاب شفاء دائما .

الأسباب الاقتصادية للاقلاع عن التدخين :

يمكن تفسير الناحية الاقتصادية للتدخين بطرق مختلفة ولكن نفور الناس من تناولها بصفتهم الشخصية يشبه تماما نفورهم من تناول الأخطار

الصحية بصفة شخصية ، وإننا لنجد فى كفة من الميزان أن دخل الحكومة من ضرائب الدخان ٩٠٠ مليون من الجنيهات ، وهو واقع لا يفهمه معظم الناس فمثل هذه الأرقام تجرى على لسان المنجمين أو على لسان الصانعين لوسائل الوصول إلى القمر . ولعل ذكرها أمام فرد عادى تجعله يشعر أنه وهو يدخن يساهم فى دفع حصته من هذا المبلغ . كما نجد فى الكفة الأخرى من الميزان أن هناك قلة من الناس يستطيعون القيام بضرب ١ شلن و ١١ بنس أو ٤ شلنات و ٦ بنس فى ٢ أو ٧ أو ٢٦٥ ، فخداعهم لذواتهم يكاد يكون عمداً . مثل ذلك أن كثيرين ممن يشترون علبة سجاير من ذات العشرين يقسمون بأغلظ الأيمانات أنهم يدخنون ١٥ سيجارة فقط يومياً لأنهم يبقون خمس سجاير للصباح التالى ؟ كما أن كثيرين اعتادو شراء كمية من السجاير مرات كثيرة فى اليوم وهذا يساعدهم على خداع الذات من ناحية مجموع ما ينفقون فى التدخين .

وليتسنى الوصول إلى فهم الناحية الاقتصادية ينبغى جمع ما ينفقه المدخن فى الصباح وبعد الظهر وفى اليوم الواحد وفى الأسبوع والشهر والسنة وطيلة العمر على الوجه الآتى مثلا ١ شلن و ١١ بنسا فى الصباح ومثلها فى المساء يكون المجموع ٣ شلن و ١١ بنس لمدة ٥ أيام فى الأسبوع فيكون المجموع ١٩ شلن و ٢ بنس ، يضاف إليه ١١ شلن و ٦ بنسات ثمن ٣٠ سيجارة ليومى السبت والأحد أو ستة جنيهات فى الشهر تقريباً يضاف إلى هذا المبلغ ما يصرف زيادة فى العطلات والندوات مما يجعل الرقم ثمانين جنيهاً فى السنة فإذا عرف أن معدل عمر التدخين ١٧ سنة كان ما ينفقه الشخص وهو فى سن الثلاثين ١٠٠٠ جنيه فإذا بلغ سن التقاعد كان ما أنفقه فى التدخين حوالى ٤٠٠٠ جنيه على أساس الأسعار الجارية .

وينبغى مقابلة هذا المبلغ بما ينفقه الشخص فى أشياء أخرى تبعاً لسنه وهواياته مثل أجهزة التسجيل والراديو والدراجات وآلات التصوير والإجازات والألعاب والسيارات والبيوت . كما ينبغى مقارنة هذه البنود بالأمر الواقع وهو أن الإصابة بالسرطان تكلف حسب الأسعار الجارية ٢٥٠٠ جنيه تقريباً ولعل هذا هو سر إطلاق التسمية الساخرة الشائعة بين طلبة الطب « ٣ شلن و ١٠ بنس » ضعها بيدك فى كيس السرطان .

أسباب أخرى تدعو الى وقف التدخين :

ومن الناس من يستطيعون الإنفاق على التدخين ولا يهتمون بأخطاره ولكنهم لأسباب عديدة لا يحبون أن يحسوا أنهم غير قادرين على وقف التدخين وقد تكون هـــذه الأسباب مقترنة بالشعور بذنب الإدمان أو بالافتقار إلى ضبط النفس . ولعل هذه الأسباب الشخصية وهى بطبيعتها خلقية أحسن الميادين للمجاهد الذى يهتم بجهاده أكثر مما يهتم بالتدخين . وهناك من ناحية أخرى بعض من الناس يهمهم المثل التى يضعونها أمام الآخرين وخاصة أولادهم . ويمكن إسداء المساعدة لهؤلاء عن طريق توكيد إحساسهم — وتقوم الدلائل القوية على وجوده — وهو أن للأب أهمية قصوى فى خلق عادة التدخين فى الأطفال .

فإذا مر الفرد من طور الرغبة فى وقف التدخين إلى طور التصميم على ذلك وصل إلى هدفه بنفسه دون مساعدة من أحد وقد حدث للكثيرين أن قاموا بهذه المهمة بأنفسهم . كما نجح كثير من الأطباء — وهم كفئة لا يمكن اتخاذهم مثلا يحتذى — فى الوصول إلى هذا الهدف فقد كان ثلثا عددهم من المدخنين ، أما اليوم فقد أصبح المدخنون منهم ثلث عددهم على وجه التقريب . ويمكن الافتراض أنهم قد أقلعوا عن التدخين لأنهم بحكم

إدراكهم للحقائق الطبيه ولمسهم لأثر التدخين السيء لأول وهلة قد ارتضوا لأنفسهم الإقلاع عن التدخين،على أنه يمكن أيضا افتراض رغبتهم فى إقامة أنفسهم مثلا للآخرين على أن هـذا لسوء الحظ لا ينسحب عليهم جميعاً .

وكيف السبيل إلى مساعدة أولئك الذين يتأرجحون على حافة البت ؟لم يعمل لهذا القصد شيء كبير،والحاجة العاجلة إلى بحوث وتجارب ضرورة ملحة.

وقد بذلت فى هذا السبيل محاولات لتقديم المساعدة ككتابة مجالات وكتب وتسجيل أسطوانات إذاعية وعمل استشارات طبية ونفسيه وإقامة عيادات مختلفة تناهض التدخين . وقد ألفت الجمعية البريطانية لمقاومة التدخين ، وهى جماعة عنيت فى الأصل لتقدير الحقوق لغير المدخنين فكونت جماعات للدراسة « والمدخنين بلا أسماء » وأنشأت عيادات للعناية بالذين يرسلون إليها لحاجتهم إلى عناية طبية .

العيادات المناهضة للتدخين :

تتألف بعض العيادات المناهضة للتدخين من عشرة أو خمسة عشر شخصا ممن يرغبون فى الإقلاع عن التدخين يجتمعون مرة كل أسبوع بإرشاد طبيب يقوم فى المرحلة الأولى للمقاومة بالشرح والإيضاح ومناقشة كل فرد من الناحية الشخصية التى أشير إليها فيما سبق،ثم يتناول المجتمعون الأسباب التى تدعوهم إلى وقف التدخين . ثم يقوم كل فرد بسرد تاريخ ممارسته للتدخين باستفاضة ، فيتناول للماذا وكيف بدأ التدخين ونمت فيه العادة،وعدد المرات التى يدخن فيها يوميا والمناسبات الخاصة التى تبلغ فيها شهوته للتدخين الذروة والأسباب التى تدعو لذلك،ثم يشجع كل عضو فى

رفق ليقدم أكبر عدد من نماذج التدخين المختلفة ويذكر الأسباب أن أمكن عندئذ يكون التباين مثارا للدهشة عند الكثيرين فاختلاف طريقة التدخين وأى طرف من السيجارة يضعه المدخن فى فمه بعد دقها لا أهمية له . أما الاختلافات الأخرى كإبقاء السيجارة فى الفم مع مواربة المدخن إحدى عينيه إلى النصف ، أو المدخن الذى لايستنشق الدخان فى أغلب الأحوال أو الشخص الذى يضع سيجارته على حافة مكتبه أو منفضة السجاير ولا يلتقطها إلا مرتين أو ثلاث مرات ليشد منها نفسا طويلا ، فهى مفتاح للطرق التى يسلكها المدخن لمحاولة وقف التدخين . كما يلاحظ بوضوح اختلاف آخر له أهميته ، وهو الوقت الذى يبلغ فيه الحنين للتدخين أشده فهناك من يقولون إنهم لايستطيعون تركيز الذهن فى عملهم أو متابعته إلا بالتدخين كالكاتب الذى لا يستطيع الكتابة إلا إذا دخن والبناء أو المهندس الميكانيكى الذى يشعل سيجارة عندما يجد نفسه أمام معضلة تحتاج إلى حل أو مندوب البيع والشراء الذى يخرج علبة سجايرد عند وصول المساو امات إلى درجة الحرج . كما أن هناك من يقولون إنهم لايشعرون بالراحة والاسترخاء بعد الوجبات أو فى الإمسيات فى منازلهم إلا بالتدخين كما يدخن الآخرون عندما لايجدون شيئا يشغلهم أو عندما يحسون ترحا أو سآمة .

وتكون نتيجة سماع المدخن للأسباب التى يبديها الآخرون أن يشرع فى التساؤل عن أسباب تدخينه والتشكك فى أنها مجرد محاولة للتبرير ومن ثم يتبادر السؤال « هل صحيح أن السيجارة تهدئ الأعصاب فعلا » ؟

قد تعرض للأنسان فى يومه ملابسات تقلقه وتحيره وتشيع الهم والترح فيه فهل يخلد المدخن إلى الهدوء بدرجة أسرع أم لا ؟ إن الفكرة

القائلة « إن السيجارة تشيع الألفة وتساعد على تبديد الجمود وتضفى الانسجام على الجماعة » تتحداها وترتطم بها نواح اجتماعية منها القذارة وما يتركه التدخين من مخلفات واصطباغ الأصابع ورائحة الفم الكريهة . وكثيرون يزعمون أن للتدخين طعما محببا فإذا ضيقت عليهم بالأسئلة بقيت قلة منهم تزعم أن كثيراً من السجاير تدخن لطعمها وأنه كلما كبر مجموع عدد السجاير التى دخنت قل عدد السجاير التى تدخن لذاتها فالتدخين على الأكثر إشباع للعادة .

فإذا أمكن مساعدة الناس على إدراك العلة فى وجوب الإقلاع عن التدخين أمكن تقويض أفكارهم التى تأصلت فيهم عن السبب الفعلى فى التدخين .

والطور التالى يكون بتبيان إمكان وقف التدخين ، وهذا ميسور بين الجماعة وهى تجتمع فى عيادة كل أسبوع حيث يمرون بأطوار مختلفة وحيث يدب فيهم عامل التنافس فيقول الواحد منهم « إذا كان غيرى قادرا فلماذا لا أكون كذلك ؟ لم يكن يخيل إلى أبدا أنه قوى العزيمة » فإذا أوضح أن وقف التدخين أمر ممكن قام الذين أقلعوا عن التدخين بوصف كيف فعلوا هذا وبماذا أحسوا وماذا يعتزمون أن يفعلوا بعد ذلك . وسيذكر البعض قصصاً مروعة عما كابدوه فى هذا السبيل بينما سيقول البعض الآخر إنهم مندهشون لأنهم نجحوا فى ذلك من غير معاناة ألم حقيقى على الإطلاق . فإذا وقع لشخص أنه كان يشكو من أعراض صدرية وأقلع عن التدخين فظهر تحسن فورى فى السعال فضلا عن قائمة الفوائد التى ترتبت على التوقف عن التدخين سواء كانت حقيقية أو وهمية كتحسين

مذاق الطعام ويسر التنفس وعودة حاسة الشم وإحساس عام بتحسن الصحة ، قويت عزائم الآخرين على محاولة التوقف عن التدخين مع ذكر هذه البركات .

وإنه لمن المهم تعبئة روح الخير فى حديثى العهد بالتوقف عن التدخين لمساعدة الذين يوشكون على التوقف، وذلك بتشجيعهم على حضور ندوات العيادة فذلك خير من إغاظة أصدقائهم . ويجدر القول بأن هناك فترة خطرة تظهر بعد التوقف فى غضون الفترة من ثلاثة إلى ستة أسابيع إذ تبلغ الثقة بنفس المتوقف مبلغها فيقبل التحدى بتدخين « سيجارة واحدة فقط » فقد تكون النتيجة عودته إلى سابق عهده وعادته من التدخين . على أن مثابرة مثل هذا الشخص على حضور ندوات العيادة كفيلة وكافية لعصمه عن اشتهاء تدخين ولو هذه السيجارة الواحدة .

إن المفاضلة بين الإقلال من التدخين وبين الإقلاع عنه دفعة واحدة أمر معقد ، فليس هناك حد معروف يصبح التدخين عنده أمراً مأمون العاقبة ، فالخطر الصحى والالتزامات المالية تقل مع الاستمرار فى الإقلال من عدد السجاير التى تدخن . فإذا كان الشخص لم يتجاوز فى حياته تدخين سيجارتين أو ثلاث فى اليوم فليس هناك مايقلق إلى حد يذكر، أما إذا كان ممن يدخنون عشرين إلى أربعين سيجارة فالإقلال يجعله عرضة للرجوع إلى سابق درجة تدخينه المتطرفة،أما توقفه دفعة واحدة فيجعل تعرضه إلى الرجوع أقل بكثير . وليس بين المدخنين من يعتقد أنه بإقلاله سيعود إلى سابق درجته من التدخين إلا أن الواقع هو أنه إذا عرض له مايزعجه أو وقعت له حادثة أو حضر حفلة فيحتمل رجوعه إلى درجة التدخين التى

أخفق فى التوقف عنها تماما ، بخلاف الشخص الذى توقف عن التدخين كلية فاحتمال رجوعه إلى التـــدخين أقل بكثير . وعلى الرغم من أن تدخين سيجارتين أو ثلاث فى اليوم متعة عند الشخص الذى لم يزد فى تدخينه على هذا القدر أصلا إلا أنه إغراء للشخص الذى كان يدخن ٣٠ ــ ٤٠ سيجارة فى اليوم . وسواء اعتزم شخص ما الامتناع عن التدخين كلية أو تخفيض استهلاكه الأسبوعى إلى النصف فهذا أمر يرجع إلى ما يفضله شخصياً ، أما محاولة التوقف التى تمتد إلى أكثر من بضعة أسابيع فنادرا ما تنجح .

حيل للاقلاع عن التدخين :

لم نتناول عند الكلام عن عيادة الجماعة كيفية وقف التدخين وذلك عن عمد . فكثير من الأشخاص حتى أولئك الذين يعتزمون الاشتراك فى عيادة جماعية يطلبون أن يعطوا العلاج «حبة أو حقنة أو تنويماً» إنهم يطلبون من غيرهم أن يمنع التدخين عنهم غير أن شيئاً من هذا لا ينجح مع غيبة الأطوار الأولى فى العملية التى سبق وصفها ، فقد تشترك جماعة فى عيادة عدة أسابيع قبل أن تتحول رغبة التوقف إلى تصميم ذلك التصميم الذى يصاحبه التقدير لقيمة إمكان التوقف وتخطى منتصف الطريق إلى النصر ، وعندئذ تصبح بعض من الوسائل المساعدة جائزة التناول بالبحث لإكمال النصر . فتباين طرق التدخين وتباين أسبابه يجعل الوسائل التى تنجح فى حالة ما جائزة الفشل فى أخرى ، وكثيرا ما يحدث بدرجة مذهلة أن يقول إنسان ما « إن الشيء الوحيد الذى أفادنى هو ما نصحنى به فلان » فيبدو هذا القول ــ رغم صحته ــ مدعاة للسخرية ولهذا ينبغى وضع خطط متعددة مقررة حاسمة .

إن اختيار الوقت المناسب للإقلاع عن التدخين له أهميته ، فمن الخطأ

اختيار الوقت الذى يجتاز فيه المدخن مرحلة خاصة من القلق أو وهو يوشك استقبال عيد الميلاد . على أنه ينبغى عدم تأجيل التوقف عن التدخين مدة طويلة جداً. فإذا كان الباعث الأكبر على التدخين يشتد فى أثناء العمل فليكن بدء التوقف فى مستهل الراحة الأسبوعية فإذا اشتدت الرغبة فى التدخين فى أثناء الوجود بالمنزل فليكن التوقف فى أول أيام العمل الأسبوعى . ومن العوامل المساعدة على التوقف تغيير نوع السجاير قبل تاريخ التوقف والامتناع عن التدخين ساعة أو ساعتين كل يوم، وليكن ذلك قبل الساعة العاشرة صباحا. وينبغى عدم زيادة ساعات الامتناع إلا إذا أمكن تنفيذ ذلك عن ثقة تامة وتصميم ثم يحسن بعـــد ذلك أن يصمم المدخن على التوقف يوما كاملا — وهذا يستطيعه أى إنسان — وفى نهاية هذا اليوم تعقد النية على التوقف فى اليوم الثانى وهكذا لمدة أسبوع وأسابيع. ويتعين أن يتضمن البرنامج اليومى البت فيما ينبغى عمله بدل التدخين، فتعد العدة لعمل شىء يحل محل التدخين. فقد يفيد الشخص الذى يشعل سيجارة بمجرد استيقاظه من النوم أن يشرب كوباً صغيراً من الليمون المر الذى أعد فى الليلة السابقة ، فالمذاق المر القابض يبدد الحرص على التدخين إلى حين . أما الشخص الذى يدخن فى السيارات العامة فى طريقه إلى محل عمله فعليه أن ينتظر حتى يصل . والشخص الذى يلذ له التدخين مع شاى الإفطار أو بعد الوجبات فعليه أن يصاحب لبضعة أيام شخصاً لا يدخن . والشخص الذى يحرص على أن تظل السيجارة فى فمه غالب الوقت يمكنه مص شىء آخر كالحلوى وأقراص خلاصة الفواكه وأقراص النعناع . والشخص الذى يشد أنفاساً طويلة من سيجارته يمكنه مضغ القرنفل فهو يكسب الشهيق حرارة وحرافة لا تلائم التدخين بضع دقائق . أما أولئك الذين يلذ لهم التدخين عندما يجنحون إلى الجلوس فى الأمسيات للاسترخاء

والراحة فالأمر صعب إذ لا يوجد علاج لهذه الحالة إلا أن يقوم المدخن بإنجاز عمل قد أجله مرة بعد أخرى ، فإذا وفق فى مزيد من هذا الإنجاز بضعة أيام فقد يمكن مروره فى هذه الفترة الحرجة الحاسمة بسلام. أما أولئك الذين يلذ لهم التدخين مع تعاطى الخمور فإما أن يقلعوا عن الخمور وإما أن يكون مجلس الشراب فى مكان مع صحبة تساعد على مقاومة الإغراء .

ومن المهم فى نهاية الأسبوع الحصول على مكافأة ملموسة عن العمل خلاله وشراء شيء عن سعة بالنقود التى اقتصدت خلال الأسبوع .

— المساعدات الطبية لوقف التدخين :

ماهى المساعدة التى يمكن أن تسديها العقاقير أو التنويم لأولئك الذين يحاولون الامتناع عن التدخين ؟ هنا يبدو أمران لا يحتملان الشك أولها أنه لا يوجد عقار مأمون العاقبة يمكن أن يتعاطاه المدخن ويؤدى به إلى وقف التدخين إذا لم يرغب فى هذا رغبة صادقة. وثانيهما أن وقف التدخين لا يختلف عن غيره فالاعتقاد فى تأثير محضر معين أو فيما يوصف له — من غير شك — بعض القيمة فهناك ثغرة كبيرة من عدم الوثوق بين هذين الأمرين المسلم بهما بصفة عامة . وقد جرب مستحضر من اللوبيلين وهو يشبه النيكوتين كيماويا ويستعمل عوضا عنه ؛ وكانت النتائج متضاربة فقد وضعت أقراص تحتوى لوبيلين وأقراص تشبهها تماما ولكن لا تحتوى على شيء، وذلك تحت إشراف شخص لا يعرف من تعاطى هذه ومن تعاطى تلك تلك فلم يلاحظ عدم ظهور أى أثر نافع فى مناسبة ما وظهور بعض الأثر النافع فى أخرى، على أن فريقا من أطباء السويد قرروا أنهم استعملوا حقن لوبيلين فحصلوا على نجاح قصير المدى فى آلاف من المرضى الذين لجأوا إلى عياداتهم خلال بضع سنين خلت .

وقد استعملت أدوية غير نوعية التماساً لتأثيرها العام كمسكنات ومنبهات أو لتأثيرها الجامع بين التسكين والتنبيه فى وقت واحد فكان كل ما أمكن ملاحظته ظهور فائدة جزئية فقط .

وقد استخدم التنويم فنجح مع البعض.ومع ذلك فيجدر بنا أن نذكر أن كثيرين قد أقلعوا عن التدخين من غير تنويم . ومن الصعب التأكد من أثر التنويم كسند فى هذا السبيل فقد عاد بعض الذين عولجوا بالتنويم إلى سابق عاداتهم من التدخين خلال أربع وعشرين ساعة وهى ليست بالفترة الطويلة . إلا أن الصعوبة البالغة فى أمر التوقف عن التدخين تتركز فى اليوم الأول أو اليومين الأولين ولهذا فلا يمكن التقليل من شأن المساعدة التى يسديها التنويم فى هذه الفترة، ومع ذلك فهو غير عملى ولا يمكن وضع استعماله على مدى واسع موضع الاعتبار .

وتتباين درجة نجاح الوسائل المستعملة فى مساعدة الأفراد أو الجماعات الصغيره على التوقف عن التدخين فقد حصرت درجة النجاح خلال فترة قصيرة فى العيادات التى يشرف عليها الدكتور إيروب فى السويد فوجد أنها بلغت ٩٨ فى المائة، امتنع عن التدخين ٧٦ فى المائة ونجح ٢٢ فى المائة فى إنقاص عدد السجاير التى كانوا يدخنونها إلى أقل من الربع فى حين أن بعضهم قرر أن درجة النجاح وصلت إلى ٦٠ فى المائة، بل ادعى آخرون أنها لم تزد على ٣٠ فى المائة . ويتوقف النجاح إلى درجة كبيرة على الأسباب التى دعت المدخن إلى الالتجاء إلى العيادة فاذا كان المدخن « يريد » الإقلاع عن التدخين ولجأ إلى العيادة من تلقاء نفسه فدرجة النجاح تميل إلى الصعود أكثر مما لو أنه ذهب إلى العيادة باشارة طبيبه لأنه « يجب » عليه وقف التدخين . ولقد كان إقبال المشتركين على العيادات باستثناء الحاصل فى

السويد ضئيلا ولهذا فواضح أنه لا بد من تحسين الطرق المقررة لمساعدة الأفراد ولا بد كذلك من جعل هذه المساعدة أكثر وجوداً ويسراً ، غير أنه على الرغم من نفع هذه العيادات للفرد فلن يكون لها إلا تأثير جانبي على عادات التدخين بالنسبة للمجتمع بوجه الإجمال إلا أن وجودها يؤثر على الرأى العام وعلى القائمين بالتشريع :

المستقبل :

فإذا رجحت كفة ميزان الرأى العام بصفة حاسمة نحو الحد من إعادة تدخين السجاير فماذا يمكن عمله ؟

أود لو ظل الناعى ينعى فى مداومة وانتظام أنباء الموت الذى يستعجله تدخين السجاير حتى يظل الخطر ماثلا دائماً أمام أنظار الجمهور . إن مقارنة الجهد الذى يبذل فى حملات التبصير بأخطار الطريق بالواقع وهو عدم بذل أى جهد إطلاقاً نحو توعية قومية رسمية لأخطار التدخين لمثير للاهتمام فلقد هبط بعد الحرب عدد الوفيات التى يسببها قطع ميل واحد من الطرق هبوطاً شديداً وارتفع مجموع الوفيات فى السنة من ٤٠٠٠ إلى ٦٠٠٠ فقط (وارتفع عدد الوفيات بسبب السرطان حسب الإحصاء من ٣٠٠٠ إلى ٢٣٠٠٠ فى نفس الفترة) فوزير النقل أو أى مسئول آخر يعنى قبل حلول عطلة رسمية بمناشدة الجماهير أن يقودوا السيارات بعناية وتبصر ، كما يعنى الحكومة إبان العطلات بدق أجراس الخطر فتعلن عن الوفيات التى وقعت مشفوعة بعدد الحوادث التى وقعت فى العام الماضى للمقارنة . ومع ذلك فعدد من ماتوا ضحية التدخين يربو بكثير على عدد من ماتوا بسبب حوادث المرور ، فمتوسط الزيادة فى الوفيات بسبب التدخين هو ١٠٠٠ وفاة كل سنة

وإنه لأمر مستغرب ومحزن أن يتخلف وزير الصحة عن زميله وزير النقل في المحافظة على سلامة الشعب بهذا القدر الكبير .

وإنني أعتقد أنه ينبغي أيضاً تحديد الأزمنة والأمكنة التي يحرم فيها التدخين على أساس الاعتبارات الصحية وأخطار الحريق وإزعاج وتكدير صفو المواطنين ، ولتكن محلات إنتاج الأغذية وتداولها ودور السينما ووسائل انتقال الجمهور على سبيل المثال أول ما يتناوله التحريم .

كما يمكن تحريم الإعلان عن السجاير أو وضع القيود التي تضمن وصول الإعلان إلى مستوى الشرف والصدق . ولعل منع الإعلان منعاً باتاً عن سلعة متداولة لا يتفق مع المنطق، ومع ذلك فقد حرم الإعلان عن التبغ في إيطاليا . وإنني أفضل أن توضع التشريعات التي تلزم المنتج بأن يسجل على العلبة ما يحتويه إنتاجه من العناصر (كما هو المتبع مع بعض الأدوية) وأن ينص على التحذير من النتائج التي يجوز أن تنجم عند تجاوز حد الإفراط . ولو نفذ هذا لتوقف كثير عن الإعلان عن التبغ بدون حاجة إلى تحريمه ، بيد أن في تشيكوسلوفاكيا حيث لا يوجد الإعلان قد استمرت الكمية المستهلكة من التبغ في ازدياد بنسبة تشابه تلك التي زاد بها الاستهلاك في بريطانيا حيث تنفق على الإعلان فيها ملايين كثيرة في كل سنة . فإذا كان الإعلان في بريطانيا يزيد من مجموع المستهلك من التبغ فعلا . فالأولى بذله في سبيل الصحة العامة ، كما ينبغي محاولة الحيلولة دون ظهور الرجال البارزين في الدولة في السينما والتليفزيون وهم يدخنون وذلك للحد من تلك الأضواء التي تسلط على التدخين من غير وعي أو قصد فتخطف أبصار الجماهير وتستهوي قلوبهم .

ولذلك لأعتقد على مرور الزمن أن أمثل الطرق للحد من التدخين هو اعتباره ترفاً لا سلعة ضرورية شائعة وينبغى إخراجه من السلع التى على أساسها تحتسب تكاليف معيشة الفرد ثم تفرض عليه ضرائب عالية تتدرج ارتفاعا مع الأيام . فعند ما كان مشروب الجين رخيصاً كان تعاطيه يهدد الصحة العامة بشكل خطير ، ففرضت عليه الضرائب التى حولته من سلعة يشربها الكثيرون فى أوقات كثيرة إلى مادة كمالية يشربها المترفون أحياناً واختفت العبوات الكبيرة . إن مجرد الإعلان عن اعتزام جعل الضريبة على العلبة التى تحتوى على عشرين سيجارة شلناً واحداً فى العام تزاد إلى أن يصل ثمن هذه العلبة جنيها كفيل أن يجعل الكثيرين يقتصرون على تدخين سيجارة بعد الوجبات وعدد قليل فى الحفلات . كما يمكن فى الوقت نفسه تغيير النظام الضرائبى فالشعير وحشيشة الدينار والعنب لا تجبى عليها ضرائب أما حصيلتها من الخمور فهى التى تفرض عليها الضرائب . كما أنه بدل فرض ضريبة على الوارد من التبغ يجب فرض ضريبة على ما يصنع من التبغ كالسجاير والسجار وتبغ الغلايين تتدرج على أساس ما ينجم عنها من خطر على الصحة . وقد رؤى أن تكون الضريبة على أساس ما يوجد فى المستحضر من مادة النيكوتين لا على اعتباره العنصر الوحيد الذى يدخل فى تركيب الدخان أو كونه مصدر الضرر الوحيد أو على كونه وثيق الصلة بالمذاق بل على اعتباره علة الإدمان. فإنه إذا عرضت للبيع سجاير رخيصة الثمن تحتوى قليلا من النيكوتين فقد يقبل بعض الناس على شرائها، وبعد فترة يكون ثمة أمل فى المدخنين لمثل هذه السجاير التى يقبل معها التعرض لنشوء العادة أن يجدوا من السهل عليهم الإقلاع عن التدخين أصلا أو تدخينها فى اعتدال ، غير أنه إذا كان الثمن هو العامل الذى يحدد من عدد السجاير المستهلكة، فهناك أمر محتمل وهو أن رخص ثمن السجاير

التى تحتوى على نيكوتين أقل قد يغرى على تدخين عدد أكبر فيتصاعد منها مع الدخان مقادير أكبر من المواد القطرانية التى يظن أنها خطرة ومؤذية .

إن صعوبة منع عادة التدخين بعد أن تكون قد تمكنت تؤكد الأهمية القصوى فى ضرورة الحيلولة بين الشباب والبدء فى التدخين وهنا يجد الإنسان نفسه مرة أخرى أمام مشكلة لا يعرف أولها من آخرها كمشكلة البيضة والنقف، فالمثل أبعد أثراً من النصح والتحذير على أنه يجب تنفيذ القوانين التى تحرم بيع السجاير للأحداث وتعزيز هذا التنفيذ بتحريم بيع السجاير بواسطة الآلات التى تبرز منها السجاير آلياً بمجرد وضع عملة معدنية فى شق من الآلة . وبعد ذلك تسن القوانين التى تعتبر الحدث الذى يظهر فى مكان عام ومعه السجاير خارجا على القانون كما هو المتبع فى مقاطعة جرسى .

لقد مات إلى اليوم فى الجزر البريطانية على وجه التقريب ربع مليون من سكانها نتيجة لتدخين السجاير ويبدو أن استمرار المجزرة على هذا النحو قد خدر الاستجابة العامة فالإنسان يتردد فى التكهن بعدد الناس الذين سيموتون قبل تقدير خطورة الموقف مع قيام إجراءات ضعيفة متراخية لكبح هذا الخطر الذى يهدد البشرية .

مطابع سجل العرب
٩ عماد الدين - بستان الدكة
تليفون ٥٢٣٠٩٠

الناشر
مؤسسة سجل العرب
٢٦ شارع شريف باشا - القاهرة
تليفون ٤٩٩٩٩ ٥٢٣٠٩

١٩٦٦

مطابع سجل العرب